

مكتبة الشروق الدولية

Twitter: @MahmoodTayeb  
10.9.2012



# ألف باء الليبرالية... والشريعة الإسلامية

عادل المعلم



# ألف باء الليبرالية... والشريعة الإسلامية

عادل المعلم

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - أكتوبر ٢٠١١ م



٢٢ شارع الأندلس - مصر الجديدة - بجوار حديقة ماري لاند

تليفون وفاكس : ٢٢٥٦٦٣٧٥ - ٢٢٥٦٦٤٣٥

٠١٠١٦٣٣٧١٨

Email: <shoroukintl@hotmail.com>

<shoroukintl@yahoo.com>

<http://shoroukintl.com>

البرنامج الوطني لدار الكتب المصرية

الفهرسة أثناء النشر

(بطاقة فهرسة)

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

المعلم، عادل.

ألف باء الليبرالية... والشريعة الإسلامية / عادل المعلم.

ط ١. - القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١ م.

١٥١ ص؛ ١٤ × ٢٠ سم.

تدمك 2-067-701-977-978

١ - الليبرالية.

٣٢٠, ٥١

أ - العنوان.

رقم الإيداع، ١٦٣٢٦ / ٢٠١١ م

الترقيم الدولي، 2-067-701-977-978 I. S. B. N.

## تصدير

يحق للقارئ أن يعترض من النظرة الأولى على عنوان الكتيب... كيف نقارن بين مذهب إنساني، وبين تنزيل سماوى؟ أو كما يقول البعض نسبي مع مطلق؟ أو وضعى متغير متطور مع نص محدود ثابت؟... ولكن يبدو أن هذين هما من التيارات الأساسية في مصر اليوم، اتجاه يدعو لليبرالية، التي جوهرها حرية الفرد قبل كل شيء، قوته في الإعلام، ومؤيدوه أكثرهم من «العلمانيين»، وكذلك يؤيده الغرب بصفة عامة، واتجاه يدعو لتطبيق الشريعة، الحرية عندهم هي التحرر من أى تشريع أرضى ينتهك التشريع السماوى، ويرددون آية ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، مؤيدوه هم الإسلاميون، ويعارضه الغرب بصفة عامة. وسنحاول هنا التعرف على هذين الاتجاهين.



# المحتويات

الموضوع	الصفحة
تصدير.....	٥
المحتويات.....	٧
الليبرالية.....	٩
مقدمة نظرية.....	١١
١ - الليبرالية السياسية.....	٢٤
عصر التنوير.....	٢٦
أعلام الليبرالية السياسية من التنويريين.....	٢٧
٢ - الليبرالية الاقتصادية.....	٣٧
أ- الليبرالية التقليدية أو الكلاسيكية.....	٤٠
ب- الليبرالية الجديدة أو الحديثة.....	٤١
أوروبا والليبرالية الجديدة أو الحديثة.....	٤٤
ت - النيوليبرالية، أو الليبرالية المعاصرة.....	٤٥
ريجان وتاتشر وپول فولكر وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والخزانة الأمريكية.....	٥٥
٣ - الليبرالية الثقافية.....	٦١
٤ - الليبرالية الإمبريالية.....	٦٢
الخلاصة.....	٦٣

٦٥.....	الشريعة الإسلامية
٦٧.....	مقدمة تاريخية
٧٥.....	شريعة التكليف الإلهي للبشر بأمانة الخلافة
٧٨.....	قضية تقنين الشريعة اليوم
٨٠.....	دساتير تنص على المسيحية
٨٣.....	اعتراضات ومخاوف من تطبيق الشريعة
	١ - فصل الدين عن السياسة
٨٤.....	لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين
٨٧... [أوروبا]:	«بعد ١٩٤٥: الديمقراطية المسيحية في السلطة»
٩٣.....	ولكن ما هي السياسة؟
	الدين في السياسة الأمريكية
٩٨.....	ما لا يتناوله الإعلام المصري ولا العربي
١٠١.....	الكنيسة والدولة
	٢ - فصل الكنيسة عن الدولة
١٠٥.....	الدين والسياسة في الولايات المتحدة
١٠٧.....	أرض الوعد الجديدة: أمريكا
١١٤... ٣-	تنحية الدين عن السياسة والحياة العامة هو سبب تقدم الغرب
١٢٠..... ٤	■ كيف نحافظ على حقوق المسيحيين؟
١٢٣..... ٥-	الخوف من الدولة الدينية (الثيوقراطية)
١٢٦..... ٦-	التخويف من تطبيق حدود الشريعة
١٣٢..... ٧-	اعتراضات أخرى
	آفاق الشريعة
١٣٤.....	في مصر بعد الثورة



# الليبرالية



## مقدمة نظريّة

ربما أصبحت مصطلحات الليبرالية، الدولة المدنية، العلمانية من أكثر ما تردده الألسنة اليوم في وسائل الإعلام المختلفة... وإذا كان معنى مصطلح هو ما اتفق الناس على معناه.. أو حرفياً ما اصطلح الناس على معناه، ففي الحقيقة لا ينطبق ذلك تمامًا على تلك المصطلحات الثلاثة، وخاصة أولها الليبرالية الذي اختلف معناه باختلاف الزمان والمكان. قيل الكلمة في الأساس اشتقاق من الكلمة اللاتينية «Liber» وتعني «حر»، وقيل تلك الكلمة استخدمت لأول مرة في مطلع القرن التاسع عشر عندما أطلقت على أحد الأحزاب السياسية في إسبانيا، وقد انقسمت لعدة معانٍ فرعية أو مجالات، فمنها الليبرالية السياسية، والليبرالية الثقافية، والليبرالية الاقتصادية وإن تقاطعت مع بعضها. وتطورت الأخيرة من الليبرالية الكلاسيكية (التقليدية) إلى الليبرالية الحديثة «New Liberalism»، ثم بعد ذلك الليبرالية الجديدة «Neo Liberalism»، والتي تقدر السوق والذي صار كما لو كان مفتاح الحياة ومصدر كل قوانينها. واختلفت معاني كل ذلك بين أوروبا والولايات المتحدة، والتي تحمل كلمة ليبرالية فيها معنى من الاستخفاف إن لم يكن الازدراء، باستثناء الساحل الشرقي والساحل الغربي، أما بقية الولايات المتحدة، والتي يمكن تسميتها «حزام الكتاب المقدس - Bible Belt»، فلا يتفاخر فيها أحد بأنه ليبرالي، وكان ريجان ليبراليًا من الناحية الاقتصادية على طريقة النيوليبرالية «Neo Liberalism» ومحافظ من الناحية الثقافية

أو الأخلاقية، وكذلك جورج بوش الابن، وكل منهما حكم ٨ سنوات<sup>(١)</sup> ويقول البعض: «إن مصطلح الليبرالية هو مرادف لمصطلح المذهب الفردي أو النزعة الفردية «Individualism».. تحولت الليبرالية من فلسفة كانت توصف في البداية بأنها أيديولوجية الطبقة الوسطى، إلى فلسفة مجتمع قومي مثله الأعلى رعاية مصالح الطبقات المالكة<sup>(٢)</sup>».

وقبل أن نُلمّ بقليل من التفاصيل، علينا أن نتفق أن كلمة التحرر في اللغة العربية تعني التحرر من قيود أو سُلطة - سواء كانت سياسية/ اقتصادية/ مالية في صورة قوانين، أو التحرر من أفكار، أو علاقات وأوضاع اجتماعية ضارة ومؤذية، أو على الأقل غير مفيدة، ومفروضة، ثبت عدم صلاحيتها وفائدتها لمصالح الناس أو رغباتهم وسعادتهم. ومن هنا يمكننا أن نتوقع أن يتمتع المصطلح بحيوية تجديدية، ترمى دائماً بالقديم الضار لصالح الجديد النافع، أو حتى القديم غير المرغوب فيه إلى الجديد

---

(١) جاء في قاموس «برويرزبوليتيكس» عن الليبرالي: شخص على يسار الوسط، يؤيد تدخل الحكومة في الاقتصاد، ويعارضه في المسائل الأخلاقية، وهو لفظ ازدرائي لمن لديهم نظرة طيبة خيرة للطبيعة الإنسانية، وقد تُستخدم كنوع من السب مثلما استخدمه جورج بوش [الأب] ضد مايكل دوكاكيس في انتخابات ١٩٨٨، وكان ريجان يُطلق على الليبرالية «كلمة إل - The L Word»، [في ازدراء بمقارنتها بيساري Leftist] بينما قال جيمس واط وزير داخلية ريجان: أنا لا أستخدم كلمتي جمهوري وديمقراطي، بل هي أمريكي وليبرالي - من منشورات كاسل ١٩٩١، صفحة ٣٤٥.

وعندما تعرضت الولايات المتحدة من نهاية ستينيات القرن الماضي لعقد عاصف من الاضطرابات: ارتفاع معدل الجريمة، وانتهاك القانون بصفة عامة وعدم احترامه ولا احترام السلطة العامة، والاعتراض العام على حال المجتمع والسياسة العامة والتقاليد الأمريكية، قال نيكسون وبوكانان: التساهل الليبرالي أصل كل شر - ضمير ليبرالي - بول كروجان، من منشورات العيكان، ٢٠٠٩، صفحة ٩٦، ٩٧.

(٢) موسوعة العلوم السياسية - جامعة الكويت، طبعة ١٩٩٣ - ١٩٩٤ الجزء الأول، صفحة ٤١٠.

المرغوب فيه، فكلما استقر حال أصبح ضارًا، وجب التحرر منه إلى جديد . نافع أو جالب للسعادة و/ أو المصلحة. ولكن من هنا أيضًا يمكن أن نتوقع الخلاف على ما هو الضار وما هو النافع والجالب للسعادة، ولمن هو ضار أو نافع جالب للسعادة، فمثلًا ترفض الليبرالية الثقافية منع المرغوب فيه حتى لو كان بعض أنواع المخدرات والجنس خارج الزواج، أو زواج المثليين.

قالت موسوعة بريتانیکا الموجزة عن الليبرالية:

الليبرالية هي مذهب سياسى اقتصادى يؤكد حقوق وحرىات الأفراد، والحاجة لتحديد سلطات الحكومة. نشأت الليبرالية كرد فعل دفاعى لرعب حروب أوروبا الدينية فى القرن السادس عشر<sup>(٣)</sup> (انظر: حروب الثلاثين عامًا). وصاغت أعمال توماس هوبز وچون لوك الأفكار الرئيسية لليبرالية، فقالا إن سلطة الملوك تقوم على رضا المحكومين فى العقد الاجتماعى المقترض بين الطرفين، وليس على الحق الإلهى للملوك فى الحكم<sup>(٤)</sup>. وفى المجال الاقتصادى، طالب

---

(٣) تلك الحروب التى نشأت بين الكاثوليك والبروتستانت، بعد ظهور مارتن لوتر وصيخته المشهورة: البابا عدو المسيح. وقابل ذلك قول الكنيسة الكاثوليكية: لا خلاص خارج الكنيسة.

(٤) سيطرت هذه الفكرة على أوروبا حتى قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٧ - ١٧٨٩)، واستمرت بعدها حتى نهاية القرن التاسع عشر - وبعد أن قضت الأنظمة المتبددة فى أوروبا على ثورة ١٨٤٨ التى اجتاحت أوروبا - خاصة فى فرنسا نفسها وفى ألمانيا، ولكن بدون السيطرة السابقة، وأساسها بعض نصوص الكتاب المقدس مثل رسالة بولس لروما (الإصحاح ١٣: ١-٢)، ورسالة بطرس الأولى (الإصحاح ١٣: ١٤-١٤)، وأقوال بعض آباء الكنيسة، مثل مارسيليو البادوى، وهناك فى الكنيسة آراء أخرى تقول بوجود خضوع الدولة للكنيسة، بدأت مبكرًا منذ أقوال أوجوستين (٣٥٤-٤٣٠)، والبابا جلاسيوس الأول فى القرن الخامس، والبابا جريجورى السابع فى القرن ١١، وتوما الإكويني (١٢٠٠-١٢٧٤) مما أدى للصراع المشهور بين الباباوات من جانب والأباطرة والملوك من جانب آخر.

الليبراليون في القرن التاسع عشر بوقف تدخل الدولة في الاقتصاد. قال آدم سميث إن الأنظمة الاقتصادية التي تقوم على فكرة الأسواق الحرة، أكثر كفاءة وتثمر رخاء أوسع من التي تتحكم فيها - جزئيًا - الحكومات. ولكن لما تسبب ذلك في الفجوة الكبيرة بين الأثرياء والفقراء - خاصة بعد الثورة الصناعية - في أوروبا وأمريكا الشمالية، طالب الليبراليون في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بتدخل محدود للحكومة في الأسواق، وأن توفر الحكومة خدمات اجتماعية مثل التعليم العام المجاني، والتأمين الصحي. وجسد ذلك - في أوسع أشكاله - برنامج «الصفقة الجديدة» - New Deal الذي طبقه الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت [بعد أزمة ١٩٢٩]، حين وسع أنشطة الحكومة الاقتصادية، ووضع الكثير من القيود التي تنظم عالم الأعمال، وصار ذلك نموذجًا لليبرالية الجديدة أو الحديثة [New Liberalism]. توسع تدخل الدولة بعد الحرب العالمية الثانية في كل من بريطانيا والدول الإسكندنافية والولايات المتحدة، وظهرت فيها البرامج الاجتماعية لدولة الرفاهية. أدى «جمود» - Stagnation - الاقتصاد في أواخر السبعينيات لإحياء الليبرالية الكلاسيكية (التقليدية) التي تنادى بالأسواق الحرة، وخاصة بين المحافظين في بريطانيا والولايات المتحدة<sup>(٥)</sup>.

طبعة ٢٠٠٦، صفحة ١١٠٨.

(٥) مثل رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر والتي كانت تقول لا يوجد شيء اسمه مجتمع، ورونالد ريغان الذي كان يقول أخطر شيء على أمريكا هو الحكومة الكبيرة، ويقول أيضًا في نفس الوقت إن في الكتاب المقدس حل لكل مشاكل أمريكا.

ولكن كيف حمل المحافظون - الأعداء التقليديون للبراليين - لواء  
«النيوليبرالية (الليبرالية المعاصرة) - Neo Liberalism»؟

قبل اقتفاء أثر تلك المراوغة، أو ذلك المصطلح المراوغ، يجدر بنا أن  
نتعرف قليلاً على المذهب المحافظ.

جاء في موسوعة بريتانیکا تحت عنوان «Conservatism»:

أيديولوجيا لأعراف وممارسات تطورت تاريخياً بشكل  
فيه استمرارية واستقرار [المقصود ليس راديكالياً أو جذرياً].  
أول من صاغ أفكارها في العصر الحديث إدموند بيرك كرد فعل  
على الثورة الفرنسية [١٧٨٧ - ١٧٨٩]، والتي يعتقد بيرك أنها  
أفسدت مثالياتها بتجاوزاتها. يعتقد المحافظون أن التغيير يجب أن  
يتم ببطء وبالتدرج، ويعتبرون بالتاريخ، وهم أكثر واقعية من  
المثاليين. من الأحزاب المحافظة المعروفة<sup>(٦)</sup>: الحزب البريطاني  
- اتحاد الديمقراطيين المسيحيين الألماني، الحزب الجمهوري  
الأمريكي. انظر أيضاً الديمقراطية المسيحية، الليبرالية.

نعود لموسوعة العلوم السياسية، فنجد أنها تقول:

تعرضت الليبرالية وكذلك المذهب الفردي لتفسيرات  
متعددة - كما سبقت الإشارة - نتيجة للتطورات التي مر بها  
النظام الرأسمالي. فقد مرت الليبرالية - حتى عام ١٩٢٠  
تقريباً - بمرحلتين متميزتين يمكن إيجاز أهم سماتها فيما يلي:

---

(٦) بصفة عامة، حكمت الأحزاب المحافظة في أوروبا (بريطانيا وألمانيا وفرنسا) والولايات  
المتحدة فترات أطول مما حكمت الأحزاب الليبرالية.

المرحلة الأولى: وسادها ما يُعرف بالراديكالية الفلسفية، أى تلك المفاهيم المبكرة لمذهب المنفعة بقوانينه وسياساته المستمدة من مبدأ «أعظم سعادة لأكبر عدد» الذى وضعه الاقتصادى الإنجليزى جيريمى بنتام فى كتابه «نبذة عن الحكم» عام ١٧٧٦، وقصد به تقديم مبدأ أخلاقى جديد كمعيار للقيمة وللتفرقة بين الخير والشر. أما الجانب الاقتصادى لليبرالية فقد تمثل فى نظرية الاقتصاد الكلاسيكى المستمدة من كتاب «ثروة الأمم» لأدم سميث عام ١٧٧٦، والتي أعاد شرحها بإسهاب دافيد ريكاردو فى كتابه «الاقتصاد السياسى» عام ١٨١٧، وخلصتها هى الحرية الاقتصادية غير المقيدة، وتعنى فى التطبيق إضفاء القداسة على الملكية الفردية، والأخذ بمبدأ «دعه يعمل، دعه يمر» السابق ذكره<sup>(٧)</sup>. تفترض تلك المفاهيم سوقاً تسودها المنافسة الحرة ويعمل فيها كل مُتَّبِعٍ وفقاً لما تمليه عليه مصلحته الشخصية. لكن سعيه هذا يؤدى بالتبعية إلى خدمة مصالح الآخرين كما لو كان هذا يتم بفعل يد خفية - على حد تعبير آدم سميث - مما يؤدى إلى تحقيق الانسجام الاجتماعى.

(٧) ظهرت هذه الأفكار فى شكل ثورة فكرية على أوضاع أوروبا الإقطاعية، والتي كان «عبيد الأرض - Serfs» يمثلون الأغلبية الكاسحة من عدد سكانها، ولم يكن لأى منهم أن يغادر الأرض التى يعمل بها إلا إذا أذن له سيده، وكانت التجارة العامة مكبلة بقوانين ملكية وبرلمانية، تعطى امتيازات احتكارية لقلّة قليلة من التجار، ولم يكن هناك ملكية خاصة كما نعرف اليوم، فكل الأراضى تعود ملكيتها للملوك والأمراء، والكنيسة ذات الحظ الأوفر من الأراضى.



على الصعيد السياسي، كانت مفاهيم الراديكالية الفلسفية للمذهب الفردي تعنى في التطبيق امتناع الدولة نهائياً عن التدخل في النشاطات الاقتصادية والاجتماعية، واقتصار دورها على الدفاع ضد العدوان الخارجي وحفظ الأمن الداخلي وتنفيذ العقود التجارية والصناعية. أى أنه ليس من صلاحياتها بأى حال دعم التعليم العام أو وضع سياسات للمحافظة على الصحة العامة أو تقديم أية مساعدات اقتصادية أو خيرية من أى نوع كان، انطلاقاً من موقف المذهب الفردي بأن أى تدخل حكومي هو اعتداء على الحرية. وقد سجّلت هذه المفاهيم الفردية أكبر انتصاراتها التشريعية في إنجلترا قبيل منتصف القرن التاسع عشر وذلك بإلغاء قوانين القمح، وانتهاج سياسة حرية التجارة عام ١٨٤٦، والتوسع الصناعي المتحرر من كل قيد<sup>(٨)</sup>.

المرحلة الثانية: وتسمى الليبرالية المحدثه [الجديدة - New Liberalism] تتسم بأنها كانت بمثابة رد فعل على النتائج الاجتماعية المدمرة لحرية التصنيع غير المنظمة والطيقة من أية رقابة. ويمكن الوقوف على الحالة التعسة التي عانت منها قطاعات واسعة من الشعب الإنجليزي

---

(٨) جدير بالذكر هنا أن بريطانيا والولايات المتحدة من أكثر دول العالم اتباعاً لأساليب الحماية الاقتصادية، قديماً وحديثاً، ويمكن الرجوع لكتاب «ركل السلم بعيداً» د. تشانج، من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

في ظل الرأسمالية من التقرير الرسمي الذي رفعته لجنة ملكية إلى البرلمان عام ١٨٤١، ووصفت فيه الأوضاع في مجال الصناعة بأنها وحشية غير إنسانية، وأشارت بصفة خاصة إلى الأوضاع البشعة لعمال المناجم وتشغيل النساء والأطفال لساعات عمل طويلة وانعدام وسائل الأمان داخل المصانع وانحيار المستويين الصحي والأخلاقي بدرجة تبعث على الاشمزاز. وقد استجاب البرلمان للضغوط فبدأ يتدخل تدريجياً بوضع تشريعات تحد من ساعات العمل المرهقة وتخفف من الظروف الصعبة في المصانع وترفع الأجور المتدنية<sup>(٩)</sup>.

يمثل تدخل البرلمان بإصداره هذه التشريعات اتجاهًا جديدًا يتعارض مع مفاهيم الليبرالية المبكرة [التقليدية]. وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته بإقدام البرلمان الإنجليزي في نهاية الربع الثالث من القرن التاسع عشر على نبذ الاتجاه المغالي فيه للمذهب الفردي، والأخذ بنوع من المذهب الجماعي «Collectivism» وإصدار تشريع عن الرفاهية الاجتماعية. وكان لا بد من هذه الإصلاحات لحماية أمن النظام الرأسمالي، وضمان الاستقرار السياسي الذي تعرضت أسسه للاهتزاز نتيجة لفوضى الإنتاج التي تصاحب النظام الفردي الحر، وعدم

---

(٩) تصور روايات تشارلز ديكنز أحداث بريطانيا في تلك الفترة، وكذلك يصور كتاب «كيف يعيش النصف الآخر - How the other half lives» لجاكوب ريس أحوال نيويورك في نهاية القرن التاسع عشر.

توافر الضمانات المتعددة اللازمة لحركة التصنيع الواسعة. وقد تجلت مظاهر الخلل المبكرة للنظام في أول أزمة اقتصادية كبرى عام ١٨٢٥، ثم أول انتفاضة عمالية منظمّة في مدينة لايدن بهولندا فيما بين أعوام ١٨٣٨ - ١٨٤٢، ولجوء عمال باريس إلى الصراع المسلح ضد البرجوازية عام ١٨٣٨ ثم في عام ١٨٧١، وكذلك الثورات العارمة خلال عامي ١٨٣٠، ١٨٤٨، وكلها مؤشرات اقتضت التحرك السريع لتخفيف الاستغلال الواقع على قطاعات واسعة من الشعب وامتصاص موجات الغضب والسخط بالإصلاحات الاجتماعية والسياسية المشار إليها. ويمكن تلخيص الاعتبارات السابقة التي أفرزت الليبرالية الحديثة [الجديدة - New Liberalism] في النقاط التالية:

- سخط المزارعين بسبب سياسة حرية التجارة وما ترتب عليها من تضحية بمصالحهم في سبيل انتعاش التجارة والصناعة، فاضطر البرلمان إلى التدخل لإعادة نوع من الحماية لحاصلاتهم.

- تصاعد أهمية الاعتبار الأخلاقي؛ إذ تولدت مشاعر الاشمزاز والنفور بعد كشف الفظائع والظروف المعيشية غير الإنسانية التي يعاني منها عمال الصناعة في النظام الرأسمالي.

- إفلاس القيم المبكرة للمذهب الفردي وسقوط مصداقيته ومفاهيمه القائمة على حجج المصلحة الذاتية، والمنفعة، والحرية الاقتصادية المطلقة.

هكذا كان على الليبرالية أن تجدد ثوبها حتى تستطيع البقاء، وتحتم على مفكريها إعادة تقويم واسعة لطبيعة الدولة ووظائفها، ومفهوم الحرية، والعلاقة بين الحقوق والالتزام القانوني، أى إعادة تقويم كبيرة لعلاقة الفرد بالمجتمع والسلطة السياسية بحثًا عن مفاهيم أكثر عدالة وإنسانية تتفق مع التيار السائد في علوم الاجتماع والأخلاق. وقد اتخذت محاولات تحديث الليبرالية شكل موجتين عبرت عن الأولى الفلسفة السياسية لكل من جون ستورات ميل، وهيربرت سبنسر رغم تعارضهما في بعض النواحي، بينما عرفت الثانية باسم فلسفة المثاليين من رجال مدرسة أكسفورد التي عبرت عنها بصفة خاصة الفلسفة السياسية لتوماس جرين الذى ظلت آراؤه تحتفظ بتأثير كبير في الفترة ما بين عامى ١٨٨٢ - ١٩٢٠. وخلافًا للشك التقليدى في الدولة الذى عبرت عنه الليبرالية المبكرة [التقليدية] المتطرفة في محاصرتها لصلاحيات الدولة، فإن ليبرالية جرين أو الليبرالية المحدثة [الحديثة] المتأثرة بهيجل والمدرسة المثالية الألمانية كانت قبولًا صريحًا بالدولة كمؤسسة إيجابية تضع التشريعات لدعم الحرية بمفهومها الليبرالى، وخاصة حرية الملكية الفردية، لكن مع وضع بعض القيود على التصرفات الرأسالية التى أشاعت الغضب وعدم الاستقرار في المرحلة السابقة، وهددت أمن واستقرار النظام، ولهذا اعتبر جرين أن تفهم الحرية بأسلوب أوسع أفقًا وأكثر أخلاقية يبرر هذه القيود.

لإيجاز ما سبق، وخاصة من المنظور السياسي منذ ثورة ١٦٨٨<sup>(١٠)</sup>، فإن الملكية الدستورية التي ظهرت في إنجلترا بعد إصدار وثيقة الحقوق عام ١٦٨٩ كانت حلًا وسطًا مع النظام الإقطاعي القديم وما تخلف عنه من ممارسات وامتيازات. وفي ظل هذا الشكل من الحكم، لم يكن يستطيع أن يدخل الانتخابات إلا كبار الملاك الذين يمتلكون حدًا أدنى من زمام الأراضي أو يمكنهم دفع ضرائب معينة. ثم ظهر تدريجيًا نمط جمهورية دافعي الضرائب في أوروبا الذي كان ملائمًا لتطور النظام الرأسمالي؛ حيث تمت تصفية البقايا الشكلية الموروثة من الإقطاع والمتمثلة في النظام الملكي والطقوس والمفاهيم المرتبطة به، علاوة على تمشي هذا

---

(١٠) ثورة ١٦٨٨ في إنجلترا، قامت كرد فعل خائف من عودة الكاثوليكية لإنجلترا، وجاء في «الخط الزمني لتاريخ إنجلترا – The Timeline History of England»: عندما أصدر الملك جيمس الثاني وأمره بقراءة «إعلان التساهل – Declaration of Indulgence» [الذي يسمح للكاثوليك بممارسة الطقوس الكاثوليكية] من كل المنابر، عمّق مخاوف الناس من نواياه. وبلغت الأزمة قممها عندما أنجبت زوجته الملكة ماري ذكرًا في ١٠ يونيو. لاحت مخاوف ولي عهد كاثوليكي، وصاحب ذلك تعيين الملك لبعض الكاثوليك في مراكز الدولة الحساسة بدلًا من البروتستانت. أدى ذلك إلى دعوة سبعة من قادة النبلاء ووليام أوف أورانج إلى إنجلترا [من هولندا] لتأمين انتخاب برلمان حر، وتأمين حقوقهم البروتستانتية. ركب ووليام البحر، وساقته الرياح البروتستانتية ليهبط في تورباي في ٥ نوفمبر. تخلى الجيش عن ملكه جيمس الثاني، الذي هرب إلى فرنسا في ١١ ديسمبر، وألقى بالخاتم العظيم [خاتم الملكة] في نهر التايمز عند هرويه – طبعة بارنز أند نوبل ٢٠٠٣، ٢٠٠٥ – صفحة ٢٦٩، ٢٧٠.

ومن يريد الاستزادة عن تلك الثورة، يمكنه مطالعة رواية ول ديورانت لها في الجزء ٣٢ من موسوعته «قصة الحضارة» صفحات ١٧٥ – ١٩٣.

الشكل مع الأساس الاقتصادي لتلك المرحلة. واستجابة لردود الفعل القوية بعد الثورات التي اجتاحت القارة<sup>(١١)</sup>، برزت الجمهورية الديمقراطية على أنقاض القيود المكبلة لحقوق الترشيح والانتخاب، وتم الاعتراف بحق الاقتراع العام الشامل<sup>(١٢)</sup>. وقد دعت الضرورة إلى هذا الشكل من الحكم بعد أن تفاقم الاستقطاب الاجتماعي، ولتمكين الواجهة الديمقراطية من تخفيف حدة الصراعات وتهدة جواطر وغضب الطبقات الكادحة وخاصة العمال - كما سبقت الإشارة إليه أعلاه. وقد نال هذا الشكل الأخير تأييد المدافعين عن المفاهيم الليبرالية للنظام الرأسمالي بصفته أفضل تعبير آنذاك عن تقدم الوعي والمدنية والتزعة الإنسانية.

لكن الأزمات المتعددة التي واجهها النظام الرأسمالي أدت مرة أخرى إلى تخلخل الأسس الفلسفية والاقتصادية السياسية التي تقوم عليها الليبرالية، وإلى تعرضها للتفنيد سواء من منتقدي الرأسمالية أو المدافعين عنها تحت واجهات

---

(١١) عندما اجتاحت ثورات ١٨٤٨ القارة الأوروبية، لم يتجاوز عدد الفرنسيين الذين يحق لهم التصويت في الانتخابات ١٧٠,٠٠٠ من الأثرياء، أى ٥٪ من عدد سكان فرنسا، بينما ارتفع العدد في بريطانيا إلى ٣٪ من عدد السكان - ١٨٤٨ عام الثورة - Year of 1848 Revolution، مايك رابورت، بازيك بوكس ٢٠٠٨، صفحة ٣.

(١٢) لم تشهد معظم دول أوروبا النظام الديمقراطي الذي يحق لكل مواطن فيه الإدلاء بصوته في الانتخابات إلا في القرن العشرين، أما الولايات المتحدة، فلم تتمكن المرأة من الإدلاء بصوتها إلا في عشرينيات القرن العشرين، ولم يتمكن السود من ذلك إلا في الربع الأخير من ذلك القرن، وذلك قانونياً أو نظرياً، ولكن عملياً تقابلهم صعوبات حتى مطلع القرن الحالى.

متباينة. فمن الخارج، تعرضت الليبرالية لتحديات قوية متباعدة من الأيديولوجيات الاشتراكية منذ منتصف القرن الماضي. بينما تعرضت من الداخل ومن بين صفوفها، لتمرّد تيارات متعددة من اليمين الرأسمالي المتطرف الذي اتخذ أشكالاً متعددة بدأت بالفاشية والنازية قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، ثم من جانب الليبرتالية «Libertarianism» منذ حوالى عقدين. وتدعو هذه الأخيرة للعودة إلى المفاهيم المبكرة للرأسمالية من حيث الحد من تدخل الحكومة لصالح جماهير الشعب، وإطلاق المبادرة الفردية لرأس المال من كل قيد، وإلغاء الملكيات العامة ووضعها تحت تصرف رأس المال الخاص فيما سمي بالتخصيص. ويعرف هذا التيار المعاصر في التطبيق باسم الريجانية في الولايات المتحدة وبالتأثرية في أوروبا والعالم الثالث<sup>(١٣)</sup>.

الجزء الأول صفحة ٤١١ - ٤١٣.

بعد هذه المقدمة النظرية، نلقى نظرة سريعة على مجالات الليبرالية في أوجه الحياة:

---

(١٣) ويُطلق عليه «النيوليبرالية (الليبرالية المعاصرة) - Neo Liberalism».

## ١- الليبرالية السياسية

ظهرت الليبرالية السياسية كثمرة لتطلع الإنسان الأوروبي لمستقبل أفضل مما كان يعاني منه تحت قوى الاستبداد السياسى في العصور الوسطى (القرن الخامس إلى القرن السادس عشر) حتى مطلع عصر التنوير في القرن السابع عشر.

تمثلت تلك القوى في الأمراء والملوك والأباطرة الذين حكموا بمفهوم «الحق الإلهى للملوك - Divine Right»، بالإضافة لقوة الكنيسة التى رأت في البابا - المعصوم من الخطأ، والذي من سلطته أن يحلل ويحرم، ويكافئ من يريد بالخلاص، ويحرم من يريد منه، حتى لو كانت قرى أو مدناً أو دولاً بأكملها - وكيلاً للمسيح، أو حتى تجسيداً للمسيح على الأرض، والمسيح في العقيدة المسيحية التقليدية السائدة هو الله.

انقسمت أوروبا في تلك القرون لثلاث طبقات: طبقة رجال الدين من الكنيسة - طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان - طبقة العامة، وجلهم إن لم يكن كلهم من الفلاحين وهم الأغلبية العظمى الكاسحة من الشعوب.

عاشت العامة في بؤس رقيق الأرض حتى القرن الثامن عشر، والتاسع عشر في بعض أنحاء أوروبا، لا يستطيعون الانتقال ولا تغيير عملهم إلا إذا وافق سادتهم.



تشارك وتنازع وتبادل السلطة المطلقة في أوروبا الأباطرة والملوك من جانب، والباباوات من جانب آخر.

ففي فرنسا على سبيل المثال، قال لويس الرابع عشر<sup>(١٤)</sup> - الذي يطلق عليه المؤرخون الملك الشمس - أنا الدولة! وكان يؤمن بأنه ممثل الله على الأرض! وكان إسرافه وفساده متميزاً مثل استبداده. وفي الأراضي الألمانية رفض فريدريك وليم الرابع في ١٨٤٩ التاج الإمبراطوري؛ لأنه جاءه عن طريق مجلس فرانكفورت الوطني، أي ما يشبه الشعب، أو ما يمثل الشعب، لأن من له الحق الإلهي في الحكم أكبر وأعلى من أن يأخذه من الشعب. وسبقت إنجلترا بقية أوروبا في أن البرلمان أصبح القوة السياسية القادرة على الوقوف في وجه الملك منذ مطلع القرن الثامن عشر، وإن كان ذلك لا يعنى أنه يهتم بالشعب، بل بمصالح أعضاء البرلمان وبطاناتهم.

ومن الناحية الأخرى، نجد البابا جريجورى السابع يقول: «إن قوى الملوك مستمدة من كبرياء البشر، وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله، إن البابا سيد الأباطرة؛ لأنه يستمد قوته من تراث سلفه القديس بطرس».

كذلك قال فيما يُسمى «الأوامر الباباوية - Dictatus Pape»: البابا وحده له سلطة عالمية - على جميع الأمراء العلمانيين أن يُقبلوا قدم البابا وحده - للبابا الحق في عزل الأباطرة - ليس لأى فرد أن يلغى قراراً بابائياً

---

(١٤) حكم لويس الثالث عشر من ١٦١٠ - ١٦٤٣، وابنه لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ - ١٧١٥، وابنه لويس الخامس عشر من ١٧١٥ - ١٧٧٤ أى أن ذلك الثلاثي الفاسد المستبد حكم فرنسا لمدة مائة وخمسة وستين عاماً، باسم الحق الإلهي للملوك!

في حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات الناس - لا يُسأل البابا عن تصرفاته - للبابا أن يميز لرعايا أي حاكم علماني التحلل من العهود وأيمان الولاء التي أقسموها لحاكمهم<sup>(١٥)</sup>.

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، اضطراب الإمبراطور هنري الرابع (١٠٨٤-١١٠٦) إلى السفر في شتاء أوروبا القارص من عرشه في الأراضي الألمانية إلى قلعة كانوسا في إيطاليا ليملكث ثلاثة أيام في الجليد حافي القدمين، قبل أن يأذن له البابا جريجوري السابع بالدخول عليه، لينكب على قدمي البابا تقييلاً وبكاءً حتى يعيده إلى حظيرة المسيحية التي حرّمه منها.

وكلفت الحروب الصليبية - داخل الأراضي الأوروبية - ومحاكم التفتيش، ومحاكم الساحرات - تلك الممارسات الكنسية الدموية التي استمرت عدة قرون - أوروبا مئات الآلاف من القتلى، إن لم يكن أكثر. استمر ذلك الطغيان السياسي والقمع الفكري حتى جاء عصر التنوير.

## عصر التنوير

طبقاً لموسوعة بريتانیکا:

التنوير هو حركة فكرية في القرنين ١٧، ١٨ بحثت في الإلوهية والعقل والطبيعة والإنسان، لتخرج بصياغة

---

(١٥) «أوروبا العصور الوسطى» د. سعيد عاشور، من منشورات مكتبة الأنجلو، الجزء الأول صفحة ٣٣٢، ٦٦٥، ٦٦٦. ومن أقوال البابا أيضاً: الطريق الوحيد لإصلاح العالم وتخليصه من الفوضى والشور هو إخضاعه للكنيسة، وإخضاع الكنيسة للباباوية - صفحة ٣٣٣.

رؤية جديدة للعالم، أثمرت قدرات فكرية فى مجالات الفن والفلسفة والسياسة.

أخضع التنوير كل المرجعيات [الأفكار التقليدية] - سواء فى العلم أو فى الدين - إلى البحث. أثمر التنوير نظريات دنيوية حديثة فى علم النفس والأخلاق على يد رجال أمثال جون لوك، وتوماس هوبز، وكذلك نظريات سياسية جذرية (راديكالية). ساهم كل من جون لوك، وچيرمى بتام، وچان چاك روسو، ومونتسكيو، وفولتير، وتوماس چيفرسون فى تطوير نقد للدولة التسلطية، وفى رسم إطار عام لمنظومة اجتماعية تقوم على أساس الحقوق الطبيعية.

ويجدر بنا أن نلقى نظرة خاطفة على:

أعلام الليبرالية السياسية من التنويريين

\* توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩)

أثرت أحوال إنجلترا زمن ميلاد هوبز ونشأته حتى شيخوخته تأثيرًا بالغًا عليه. ولد عام الأرمادا الذى خاف الإنجليز فيه من الأسطول الإسباني الرهيب الذى أراد غزو إنجلترا لتحويلها إلى الكاثوليكية، بتأييد من البابا وفرنسا الكاثوليكية، ولمنع قرصنة الشعب الإنجليزي الذى دأبت أساطيله على سرقة ما تسرقه الأساطيل الإسبانية من أمريكا، ولكن استطاع الأسطول الإنجليزي تدمير أقوى أساطيل أوروبا فى ذلك الوقت، ومن بعد تلك المعركة، صارت إنجلترا قوة بحرية، ثم القوة

البحرية الأولى في العالم. ومن أقوال هوبز الشهيرة: وضعت والدتي توأمين: الخوف وأنا، وقال عن نفسه عند اشتعال الحرب الأهلية: أنا أول الفارين! وفر إلى فرنسا. أهم إنجازات هوبز الفكرية في عالم السياسة استخدامه لنظرية العقد الاجتماعي<sup>(١٦)</sup> لتأييد الحكم الملكي المطلق. الذي اعتبره أسمى نظم الحكم وأكثرها كمالاً واستقراراً. وتأكيداً على الحكم القائم على الأساس الشعبي بدلاً من الحق الإلهي.

وأهم كتب هوبز «اللياثان - Leviathan» وهو اسم من الكتاب المقدس يعنى: «وحش هائل يقضى على بقية الوحوش»، وقصد به هوبز الحكومة القوية التي تسيطر سيطرة كاملة على كل مقاليد الحكم، وقال في كتابه: «إن أى حكومة تصل للحكم بالقوة هي حكومة شرعية يجب الخضوع لها». ومن طرائف عصر هوبز، أن الطاعون أصاب إنجلترا، واشتعل بها الحريق الكبير بعد نشر كتابه الذي ناقش فيه - من ضمن ما ناقش - الإرادة الحرة للإنسان، وأن الإنسان لم يولد فى الخطيئة، بما يخالف التفكير المسيحي التقليدى، فاتهمه رجال الدين ومن والاهم، بأن الطاعون والحريق من علامات غضب الله على ما كتبه هوبز وطالبوا بمحاكمته، وشكلوا لجنة لبحث كتابه الخطير سبب تلك الكوارث، ولم ينقذه إلا تدخل الملك شخصياً.

ومن أقوال هوبز الشهيرة عن الطبيعة البشرية: «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان».

(١٤) تلخص نظرية العقد الاجتماعي في أنها تقدم بديلاً عن الحق الإلهي للملوك في الحكم، هو رضا الشعب لعقد بينه وبين الحاكم، يقوم على القانون الطبيعي والحقوق الطبيعية، والطبيعة عند بعض التنويريين هي بمثابة الله عند المؤمنين.

يعتبر لوك أهم المفكرين السياسيين في عصر التنوير، ومُنظر الحزب البرلماني الإنجليزي وثورة (١٦٨٨)، وهو أيضًا مصدر إلهام لأفكار الثورة الأمريكية (١٧٧٦)، ولبادئ الدستور الأمريكي، فهو الرائد الأول للتنوير والليبرالية. جاء لوك من أسرة بيوريتانية<sup>(١٧)</sup>، وقاتل أبوه في الحرب الأهلية، وهاجر إلى هولندا لمدة ست سنوات في نفى اختياري، عاد بعدها في ركاب الملكة ماري وزوجها ويليام، وعمل بالحكومة الإنجليزية حتى قرب وفاته. أهم أعماله: «رسالتان في الحكومة - Two Treatises of Government»، و «رسالة في التسامح - Treatise of Tolerance».

نادى في كتابه الأول بإسقاط فكرة الحق الإلهي لحكم الملوك، ورفع شعار العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكومين، ونادى بالحكومة المحدودة في مؤسساتها وفي صلاحياتها، وقال إن عملها الرئيس هو تحقيق الصالح العالم، بتطبيق القوانين، وحماية الأرواح وحماية الممتلكات، وجادل لوك ليثبت شرعية الملكيات الخاصة، وفند بذلك التقاليد الكنسية والملكية التي كانت ترفض ذلك المفهوم، واعتبر أن الحكم الاستبدادي نقيض الحكم المدني.

(١٧) طائفة پروتستانتية رفضت كثيرًا من ممارسات كنيسة إنجلترا، واعتبرت بعضها كاثوليكيًا، ونادت بالتطهر منها، وهم من أسباب اشتعال الحرب الأهلية في إنجلترا. هاجروا إلى أمريكا الجديد، وأنشأوا بها نيو إنجلاند ليحكموا بها أنزل الله، وكانوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار.

أما عمله المهم الآخر «رسالة فى التسامح» والذي كتبه فى عامي (١٦٦١-١٦٦٢)، أو بعد ذلك، والذي اعتبره الكثير من المفكرين والمؤرخين فتحًا فى قضية التسامح الدينى فى أوروبا، فقد تكلم فيه عن التسامح بين الطوائف البروتستانتية، ورفض أن يمتد ذلك التسامح ليشمل الكاثوليك، وبالطبع لا اليهود ولا المحمديين الأتراك، أى المسلمين<sup>(١٨)</sup>.

\* بارون دى مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥)

عاش فى نهاية حكم لويس الرابع عشر، الملك الشمس كما يطلق عليه معظم المؤرخين، والملك المستبد المبذر الفاسد كما يُطلق عليه المدققون. كذلك عاصر نتائج انتصار الثورة الإنجليزية (١٦٨٨) التى أكدت سلطة البرلمان، وتحسر على «مجلس الطبقات - Estates General» الفرنسى الذى لم يستدعيه الملوك من ١٦١٤ حتى وفاته، وإلى قيام الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩.

دافع عن حقوق الأفراد ضد استبداد الحكومات، وبحث فى مسألة فصل السلطات، واعتبر أنها الضمان الأساسى لحرية الأفراد، وقال بأن هناك ثلاث سلطات رئيسية فى كل حكومة: السلطة التشريعية: تصدر القوانين، السلطة التنفيذية: تختص بالشئون الخارجية، السلطة القضائية: تطبق القانون.

أكد مونتسكيو على نسبية القوانين، بمعنى أنها يجب أن تتشكل وفقاً للأوضاع والظروف والبيئة فى كل مجتمع، وعاداته وتقاليده، والتى سماها مجتمعة «روح القوانين»، وذلك فى كتابه الشهير بنفس الاسم.

(١٨) ترجم هذا الكتاب عن اللاتينية الدكتور عبد الرحمن بدوى، ونشرت تلك الترجمة المتميزة مع مقدمة الدكتور بدوى المستفيضة لها، دار الغرب الإسلامى بالتعاون مع اليونكو، وأعادت مكتبة الشروق الدولية نشره.

ورأى مونتسكيو أن الحرية السياسية هي حرية التصرف فى حدود القوانين فى ظل حكومة تعمل وفقاً للقوانين وليس الأهواء، وقال إن القانون المدنى هو ذلك القانون الذى يضعه المجتمع ليحكم العلاقة بين أفراده.

دافع مونتسكيو عن الرق وعن استرقاق العبيد من أفريقيا، بل وأصبع عليه شرعية مسيحية؛ حيث يقول فى كتابه «روح القوانين» بكل صراحة: شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين، لم تبدأ من استعباد شعوب أفريقيا لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة .. والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة أنوفها فطساء فطساء شنيعاً، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله قد وضع روحاً داخل جسم حالك السواد... من المستحيل أن نفترض أن هؤلاء الناس بشر... لأننا إذا افترضنا أنهم بشر فإننا سنبدأ فى الاعتقاد بأننا لسنا مسيحيين<sup>(١٩)</sup>.

\* جان چاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨)

ربما كان روسو من أهم المفكرين السياسيين على الإطلاق، وهو رجل المتناقضات فى حياته وفى آرائه وكتابه، وفى تفسير المؤرخين لأعماله وآرائهم فيه.

فمفكر الثورة الفرنسية - الذى مات قبل اندلاعها بعقد واحد (١٧٨٧ - ١٧٨٩) اعتبره البعض مدافعاً عن الفردية، والبعض الآخر

(١٩) الفكر السياسى من أفلاطون إلى محمد عبده - د. حورية مجاهد، الأنجلو المصرية، طبعة ١٩٩٢ صفحة ٤٣٦.

مدافعًا عن الجماعة على حساب الفردية، وهو المدافع الحقيقي عن الديمقراطية، وعند البعض بل هو المدافع عن الشمولية ... هل هو ثوري أم محافظ... مادي أم رוחي؟ ... وهكذا.

كابد روسو ابتلاءات الحياة، فقد هاجر جده البروتستانتى (الهُوجونوت) من باريس إلى جنيف هربًا من اضطهاد الكاثوليك والحروب الدينية التي أصابت فرنسا (١٥٦٢ - ١٦٢٩). ماتت أمه بعد ولادته مباشرة، ثم تركه أبوه وترك جنيف كلها، فتولى خاله تربيته. تنقل في صغره بين كفلاء وأرباب عمل مختلفين، حتى دخل ديرًا في إيطاليا، وتحول من البروتستانتية إلى الكاثوليكية، ولكن هرب بعد ذلك من الدير بسبب فساد رهبانه، وعاد فيما بعد إلى البروتستانتية.

التحق بالعمل لدى سيدة في نهاية عقده الثانى، ووجد عندها فرصة القراءة والتعلم، ثم عاد لفرنسا ليعمل في ليون ثم باريس، وسنحت له فرصة الوصول لرجال الأدب والفلسفة. تزوج وأنجب أطفالًا، ألقى بهم جميعًا في ملجأ لقطاع لضيق ذات اليد، أو لرغبته في التحرر وعدم التزامه مسئولية أبنائه في قول آخر، خاصة بسبب علاقاته الغرامية المتعددة والشاذة.

عندما قتل زلزال لشبونة في عام ١٧٢٥ كثيرًا من المصلين في الكنيسة وآلافًا خارجها، ألقى باللوم على حياة البرتغاليين الفاسدة التي جلبت عليهم الزلزال.

بدأ نجمه يبرز عندما قدم بحثًا فريدًا للإجابة عن مسابقة فلسفية محورها: هل أفسدت العلوم والفنون الأخلاق أم أصلحتها؟.



كفلت له الجائزة إجابته الصارخة: إنها علة فساد الأخلاق، وإن ما يراه الناس تقدمًا وحضارة ما هو إلا تخلف أخلاقي ومعنوي.

ومن يومها، بدأت كتابات روسو تدعو للعودة للحالة الطبيعية الأولى للبشرية، التي سادت فيها الفضيلة التي أفسدتها الحضارة.

وكتب روسو عن إله الطبيعة بما يخالف أقوال الكنيسة الكاثوليكية، خاصة قوله إن البشر ولدوا أحيانًا طيبين وليس في الخطيئة الأصلية، الأمر الذي وجدته الكنيسة ينفي معنى وهدف صلب المسيح، فأدانه كبير أساقفة باريس، وأصدر أمرًا بالقبض عليه.

وعلى عكس جون لوك، رأى روسو في الملكية الخاصة السبب الرئيسي لكل أمراض المجتمع.

ثم بدأ روسو - الذي يراه الكثيرون من أعلام عصر التنوير - يهاجم كثيرًا مما اعتبره الفلاسفة تنويرًا، وكثيرًا ما دخل في صراعات مع قولتير.

أخذ روسو في نقد الأحوال القائمة نقدًا جذريًا، ورأى أن الأوضاع في عصره تقنن الظلم والتفاوت في أحوال الناس المادية وتقضى على المساواة، وانتقد اتفاق السلطة الدينية مع السلطة السياسية على الحق الإلهي للملوك في الحكم.

شرع روسو في صياغة أهم أعماله: «العقد الاجتماعي» وتساءل فيه: ولد الإنسان حرًا، ولكنه الآن مكبل بالأغلال في كل مكان، فكيف حدث هذا؟ وكيف أصبح مشروعًا؟. طرح روسو آراءه في الحرية والمساواة والسيادة الشعبية - وجعلت الثورة الفرنسية شعارها: الحرية - الإخاء -

المساواة<sup>(٢٠)</sup> - ورأى حاجة المجتمع إلى عقد اجتماعى يتنازل بموجبه الأفراد عن إرادتهم الخاصة لحساب إرادة جماعية، تُسمى جمهورية أو دولة، وعلى الأفراد «المواطنين» الخضوع لقوانين الدولة.

ورأى أن الديمقراطية تناسب الدول الصغيرة، والأرستقراطية تناسب المتوسطة، بينما الملكية تناسب الكبيرة.

هاجم العبودية بشدة، فكان صوته نشارًا فى عصره، عصر التنوير.

وأباح ثورة الشعب عند سلب حريته، ومع ثورته الواضحة، فقد قال إن الحكومة الديمقراطية تناسب شعبًا من الآلهة، والحكومة الكاملة لا تناسب آدميين، كذلك قال - كما لو كان يريد إيقاع قارئه فى مزيد من الحيرة وإيقاع نفسه فى مزيد من التناقض -: إذا جعل الشعب لنفسه ممثلين، فقد حرّيته وفقد وجوده.

قضى روسو سنواته الأخيرة هاربًا فارًا، وسيطر عليه شعور بالاضطهاد، ربما مصاحبًا لشعور بجنون العظمة، واستقر فى النهاية فى إنجلترا، وتملكه شك فى أن الكنيسة الكاثوليكية وفلاسفة التنوير، وحتى جميع أصدقائه القدامى يتآمرون ضده. ذلك العبقرى الذى أحب الطبيعة، وأحب عامة الناس - الذين كثيرًا ما رجموه بالحجارة - أمضى بقية أيامه فى التأمل فى نزاهات طبيعية، رأى أنها تقربه من الله، وذلك الماجن جنسيًا، رق قلبه وسمت عواطفه، واقترب من الله كما لو كان قطبًا صوفيًا، أو قديسًا، فقال وهو على فراش الموت: دعوا النافذة

---

(٢٠) ولكن هذا الشعار لم يمنعها من إخراج الجيوش الفرنسية لغزو الكثير من الدول الأوروبية والأفريقية والآسيوية.

مفتوحة... انظروا كيف صفت السماء كما لو كانت بوابتها مفتوحة لى؟ وكان الله ينتظرنى!

\* جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٢)

من أهم مفكرى القرن التاسع عشر، وأهم المفكرين الإنجليز فى ذلك القرن بلا منازع، وأحد أعلام الليبرالية الغربية.

هو أكبر أبناء جيمس ميل، أحد موظفى شركة الهند الشرقية، تلك الشركة التى غيرت تاريخ العالم عندما بدأت بالتجارة مع الهند، ثم تطورت أعمالها فى القارة الهندية حتى سيطرت على كل مقدراتها السياسية والاقتصادية والمالية، وتحولت إلى قوة احتلال ذات جيش هائل من المرتزقة، واستطاعت القضاء التام على صناعة المنسوجات الهندية، فتحولت الهند إلى أكبر مستورد للمنسوجات البريطانية بعد أن كانت ورشة العالم لصناعة المنسوجات، وضربت الشركة رسوماً على كل واردات وصادرات الهند<sup>(٢١)</sup>. عمل جون الابن فى نفس الشركة التى عمل بها أبوه، وتدرج فى مناصبها حتى أصبح ثانى شخصية بها. وكما تبع جون أباه فى العمل فى شركة الهند الشرقية، فقد تبعه فى اقتناعه بمذهب النفعية الذى فضّل جيمس بتام ملامحه.

لكنه بعد ذلك تخلى عن ذلك المذهب ووضع تعريفاً فلسفياً للسعادة، نافياً أن تكون بمثابة ثمرة مادية يمكن قطفها، بل هى حالة يمكن الوصول إليها بممارسة الأعمال الأخلاقية الصائبة.

(٢١) من يريد الاستزادة، يمكنه قراءة كتاب «الشركة التى غيرت العالم: كيف بنت شركة الهند الشرقية الإمبراطورية البريطانية» لك روبينز، من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

وضع چون ستيوارت ميل عدة كتب يدافع بها عن مصالح عامة الشعب بعد أن بدأت آثار الليبرالية الاقتصادية فى إلحاق أبلغ الأذى والضرر بها، خاصة بعد الثورة الصناعية واستغلال رأس المال الطائش والطائح لأبسط الحقوق الإنسانية، وأهم هذه الكتب «عن الحرية - On Liberty»، وكتب كذلك «عن الحكومة التمثيلية - On Representative Government».

ورأى أن واجب الحكومة العمل على تحقيق السعادة لأكبر عدد من الشعب، وأن تلك السعادة ليست محصورة فى الماديات، ولكنها فى ممارسة الفضائل، ورأى أن تلك السعادة هى الأسمى والأجدر بالإنسان.

أهم إنجازاته الفكرية، وهى الخاصة بالحرية، ظهرت كرد فعل على ما رآه فى إنجلترا القرن التاسع عشر من بؤس وفقر، وقهر فكرى لعامة الشعب، وخاصة للنساء، ونادى بضرورة كفالة الحريات الثلاثة: حرية العقيدة وإبداء الرأى: وذلك فى المسائل الدينية بصفة رئيسية، والمسائل السياسية والاقتصادية.

حرية العمل: طالب بالتححرر من الاحتكارات والامتيازات التى تكفلها الحكومة أو الملكية لقلّة من الأفراد، بينما تترجح غالبية الشعب فى خدمة سادتهم.

حرية التجمع: لتكوين نقابات أو اتحادات عمال، أو جماعات سياسية. ولكن رائد الحرية خاف من السماح للأغلبية الجاهلة أن تختار البرلمان!

## ٢- الليبرالية الاقتصادية

مرت الليبرالية الاقتصادية بثلاث مراحل رئيسية: الليبرالية التقليدية أو الكلاسيكية، ثم الليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism»، ثم أخيرًا «النيوليبرالية» (الليبرالية المعاصرة) - «Neo Liberalism»، والأخيرة ظهرت أفكارها المبدئية في منتصف القرن الماضي وتطورت حتى بدأ ريجان تطبيقها في الولايات المتحدة، وتآثر في بريطانيا، ورفعت السوق إلى مقام مقدس حتى قيل للسوق «يا إلهي ما أعظم قدسيك!».

ونبدأ في تصفح تطور تلك الليبرالية من بداية عصر التنوير، حتى عصر العولمة في كلمات قليلة.

عاشت معظم أوروبا تحت نظام الإقطاع في اقتصاد مغلق لعدة قرون، فانتظم المجتمع تحت مظلة الإقطاع في ثلاث طبقات رئيسية كما عرفنا سابقًا (رجال الكنيسة - الأمراء والفرسان - العامة وهم الغالبية الكاسحة، جلهم - إن لم يكن كلهم - فلاحون، يعيشون فيما يشبه الاكتفاء الذاتي من الضروريات في الإقطاعيات والعزب).

لم يكن لدى معظم الناس في تلك المجتمعات المغلقة في العصور الوسطى من طموحات أو حتى تطلعات كبرى، كانت أفكار الكنيسة عن المتع الدنيوية سلبية، حتى إنها كانت ترى الجنس بين الزوجين أمرًا غير مرغوب فيه، وكذلك شككت في أرباح التجارة هل هي حلال أم حرام؟ واستندت

آية في الإنجيل يقول فيها المسيح: إنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب إبرة من أن يدخل الغنى ملكوت الله. وكان من الفضائل إنكار كل المتع الدنيوية الحلال، وكتب كل تطلعات الفرد الدنيوية، وأرادت الكنيسة رعية لا تفكر ولكن تطيع، وهل يريد ملوك الحق الإلهي في الحكم شعوبًا أفضل من ذلك؟. حتى جاء عصر إعادة الميلاد، وللأسف هذا المصطلح الإيطالي تمت ترجمته بطريقة خاطئة تمامًا - مثل غيره من المصطلحات - إلى عصر النهضة<sup>(٢٢)</sup>. بدأ عصر إعادة الميلاد في إيطاليا في القرن ١٢ أو ١٣، ومنها انتقل لبقية أوروبا حتى القرن ١٥ أو ١٦. ومحور ذلك العصر هو الإنسان. ذلك الإنسان الذي سحقت الكنيسة وأنظمة الحكم، أصبح مع عصر إعادة الميلاد أهم ما في الوجود... والاهتمام به بإعادة إنسانيته، والاعتراف بقدراته وملكاته على الإبداع، وبحقه في التمتع بالدنيا... في كل شئون حياته.

صاحب ذلك أن بدأت التجارة تزدهر بين أوروبا وبقية العالم - نتيجة أسباب كثيرة متنوعة، منها ما رآه الصليبيون من تقدم الحياة في الشرق الأوسط، مع التقدم النسبي في وسائل النقل والانتقال، حين ظهرت طرق شبه ممهدة، مع استخدام أفضل لحيوانات النقل باستخدام السروج والركابات، والعربات المجرورة البدائية، مع التقدم النسبي في صناعة السفن بأجهزتها الملاحية وتزويد الملاحين بخرائط أدق - فزادت تطلعات الناس لحياة أفضل في كل أوجه المعيشة، من منازل لأطعمة لملابس، لبعض المشغولات اليدوية ولبعض الكماليات النسبية، وبدأت التجارة تجتذب أعدادًا أكبر، كذلك بدأت الحرف في التوسع وفي اجتذاب أعداد أكبر للعمل بها.

(٢٢) الكلمة الإيطالية هي: «Rinascimento»، وبالفرنسية هي «Renaissance»، وتعني في اللغتين إعادة الميلاد، وعنّت في الواقع الرجوع للثقافتين والحضارتين الإغريقية والرومانية.

ومع ذلك التطور النسبي، بدأت البلدات والمدن تجتذب سكاناً أكبر من الإقطاعيات والعزب والقرى. ولكن عاكس ذلك التطور رق الأرض، فالغالبية العظمى من الناس يعملون لحساب ساداتهم من الإقطاعيين فى الزراعة، والقليل فى الحرف اليدوية، وليس لديهم الحرية فى الانتقال لأى عمل آخر فى أى مكان آخر.

ومع زيادة التجارة مع الشرق، بدأت إسبانيا والبرتغال فى البحث عن طريق يصل للشرق الأقصى - للحصول على كنوزه من التوابل وغيرها التى عاينها الصليبيون فى الشرق الأوسط، بدون المرور على الشرق الأوسط حتى توفر الضرائب التى كانت تدفعها لتجاره وحكوماته، وبدأ عصر الاستكشاف البحرى غرباً، والذى أهدى أمريكا للمغامرين، بما حوته من مناجم فضة وذهب، وأراضٍ زاخرة بكل ثروات الطبيعة المعدنية والزراعية والحيوانية، فتدفقت سبائك الفضة والذهب إلى إسبانيا، فانتعشت خزائنها، وأنعشت معها جيرانها، وبدأ القراصنة الإنجليز فى سرقة الكنوز التى سرقها السفن الإسبانية من أمريكا.

أنشأت هولندا شركة الهند الشرقية، وتلتها إنجلترا لتستحوذ على الهند وتمديدها الطويلة لبقية شرق آسيا، وكذلك فعلت فرنسا.

فى هذا السياق التاريخي ظهر رائد الليبرالية الاقتصادية الإسكوتلاندى: آدم سميث (٢٣).

(٢٣) آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠): فيلسوف كتب فى الأخلاق والاقتصاد السياسى. درس فى جامعة جلاسجو ثم أكسفورد، وصادق دافيد هيوم الفيلسوف والمؤرخ الإسكوتلاندى.

كتب «نظرية فى العواطف الأخلاقية - Theory of Moral Sentiments»، =

## أ- الليبرالية التقليدية أو الكلاسيكية

أول الليبراليات الاقتصادية ظهورًا.

نادت بعدم تدخل الحكومة في الزراعة والتجارة والحرف، أى الاقتصاد بصفة عامة، وتحرير الناس من رق الأرض، ومن احتكارات الأعمال التجارية والحرفية التي ميزت بها الحكومة بعض الأفراد والشركات.

بدأ آدم سميث بالمناداة بها، وأيده بعد ذلك وطور فكرته دافيد ريكاردو، وچون ستوارت ميل. ظهرت فكرتها مع كتاب سميث في (١٧٧٦)، وظهرت آثار تطبيقها الرهيب على المجتمع الإنجليزي بعد حوالى نصف قرن من اتباعها، خاصة أنها صاحبت الثورة الصناعية، والإنتاج بالجملة، فتسلط رأس المال وطغى واستبد، وبدأت التمردات والانتفاضات والثورات تشتعل في أوروبا والولايات المتحدة، فانزعج البعض لأحوال البؤس والشقاء والفقر التي عاشت فيها الشعوب الصناعية، وفي مقدمتها إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة؛ مما أدى إلى ظهور مفكرين ليبراليين مصلحين،

---

= ثم سافر إلى فرنسا بصحبة أحد طلابه - الذى أصبح دوقًا فيما بعد - والتقى المفكرين الفرنسيين فى عصره، ودرس بضع سنوات حتى استطاع أن يقدم أهم كتبه « البحث فى طبيعة وأسباب ثروات الأمم - Inquiry into The Nature and Causes of The Wealth of Nations (١٧٧٦) » ونادى فيه بحرية الناس فى العمل، وأنهم يحققون مصالح المجتمع ككل عندما يتركون أحرارًا فى السعى وراء مصالحهم، وحاجج بأن هناك « يد خفية - Invisible hand » تصحح مسارات الانحراف والإخفاق فى السوق، وذلك أفضل من سيطرة الملك والبرلمان الإنجليزي على كل الأمور التجارية والاقتصادية، واحتكارهم إعطاء الامتيازات فى التجارة والصناعات الحرفية لمن يريدون. دعم فى كتابه المبدأ الذى نادى به « الفيزيوقراط - Physiocrats » الفرنسيون: « دعه يعمل - Laissez Faire ». أصبح كتابه بمثابة « الكتاب المقدس - Bible » للرأسمالية على حد قول موسوعة بريطانيا.



ينادون بتدخل الحكومة لإنقاذ الجماهير، وذلك بفرض ضرائب على الأثرياء والشركات الكبيرة، ومساعدة الشعب في سد احتياجاته الضرورية في السكن والطعام والعلاج والتعليم، وإعانات البطالة والمرض والتقدم في العمر.

## ب- الليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism»

ظهرت كرد فعل لما آلت إليه أحوال الشعوب في بلاد الرأسمالية الصناعية الحديثة: إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، حيث كشر رأس المال عن أنيابه ومخالبه، وفرض شروطه القاسية على العمالة الفقيرة الضعيفة؛ مما سبب الكثير من الانتفاضات والتمردات والثورات<sup>(٢٤)</sup>.

أحسن بعض الليبراليين بأنه لا بد من معالجة الأحوال وتصحيح المسار

(٢٤) على سبيل المثال، نشبت في فرنسا ثورتان في ١٨٣٠، ١٨٤٨ مع كثير من الاضطرابات والانتفاضات، ومنها انتفاضتان مسلحتان في ١٨٣٨، ١٨٧١، وعمت ثورة ١٨٤٨ الكثير من دول أوروبا: فرنسا، النمسا، ألمانيا، إيطاليا وغيرها. وقد استطاعت أنظمة الحكم استعادة سيطرتها في كل دول الثورة بعد مرور حوالي عشرة أشهر أو أقل من اشتعالها. وفي بريطانيا دمر العمال العاطلون «اللوديون» ماكينات النسيج الحديثة التي اعتبروها سبب بطلانهم في ١٨١٢، ثم ١٨١٦، وفي ١٨١٩ نشبت مواجهة بيترو الدامية في مانشستر، وكشف إحصاء يوم القيامة الجديد «New Domesday» في ١٨٣٧ أن سبعة آلاف إنجليزي يملكون ٨٠٪ من الأراضي، وأضرّب عمال الميناء في لندن لمدة شهر في ١٨٨٩. وفي الولايات المتحدة، سجّل المؤرخ هوارد زن في كتابه «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة» حالة القمع والفقير واليؤس التي عاشها الشعب، وسجلت الفصول: «الحرب الأهلية الأخرى - لصوص وثورات - الإمبراطورية والشعب - التحدي الاشتراكي» الفترة القاسية من ١٨٣٩ - ١٩١٤. ونكتفي هنا بما قاله إجناتوس دونلي في المؤتمر الوطني لحزب الشعب في سان لويز ١٨٩٢: نلتقى اليوم وأمتاع على حافة انهيار أخلاقي وسياسي ومادي، فالفساد يبيمن على صناديق الاقتراع، والصحف إما مدعومة من الحكومة وإما مكتمة، والرأي العام مقموع.. والعمل كاسد، وبيوتنا تكبلها الديون، والأرض في أيدي الرأسماليين... الأغنياء يسرقون في صفاقة عرق الملايين يومًا بعد يوم.. إن ثمة طبقتين تخرجان من رحم الظلم الحكومي: الفقراء والمليونيرات - التاريخ الشعبي للولايات المتحدة، هوارد زن، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ج١، صفحة ٤٥١.

لثلاثاً تحدث انتكاسة إلى النظام الاقتصادي القديم، أو إلى المسار الشيوعي. بدأ المفكرون الليبراليون ينادون بتدخل محدود للدولة في المسار الاقتصادي، وتدخل الدولة لتساعد على سد الضروريات الأساسية للفقراء: الطعام والسكن والملبس، والعلاج والتعليم.

توج ذلك الاتجاه فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة بعد أزمة ١٩٢٩ التي طحنت بلاده وأصاب أوروبا، فتقدم بمشروعه الذي سماه «الصفقة الجديدة - New Deal».

أيقن روزفلت أن ترك الحياة المالية والاقتصادية لقوى السوق دمرهما، ودمر معها الحياة الإنسانية الكريمة، فوضع شعاراً إنسانياً جديداً هو العمل للتححرر من الحاجة، فذل الحاجة يقضى على كرامة الإنسان وحرية، ومن ثمَّ إنسانيته، وإذا لم تحافظ الحكومة على إنسانية مواطنيها فماذا بقي لها أن تعمله؟! (٢٥)

طبق روزفلت أفكار عالم الاقتصاد الإنجليزي جون ماينارد كينز للوصول إلى أعلى حدود لتشغيل الطاقة العاملة، ووضع برنامجاً واسعاً أسس به «دولة الرفاهة - Welfare State»، فوضع نظاماً جديداً للضرائب المتصاعدة

(٢٥) وربما وضع روزفلت نصب عينيه وفي قلب ضميره المقالة الخالدة لما رى إلين ليس: وال ستريت تملك البلاد، لم تعد الحكومة حكومة الشعب لكنها حكومة وال ستريت.. وقوانين البلاد هي نتاج نظام يُجبل الأوغاد على حساب الشرفاء. كل عام يموت عشرة آلاف طفل جوعاً، وتجبر أكثر من مائة ألف فتاة على بيع شرفها مقابل الطعام.. هناك ثلاثون رجلاً تربو ثروة الواحد منهم على المليار ونصف المليار من الدولارات، وأكثر من نصف مليون شخص يبحثون عن عمل.. لقد فاض بالناس الكيل، ألا فيحذر كلاب المال الذين لا يزالون يطاردوننا - المصدر السابق، صفحة ٤٥٠.

على الأثرياء وأصحاب الدخول العالية، ووضع قيودًا على أعمال البورصة ليمنع جشع وطمع رأس المال وتلاعب المضاربين بأموال الشعب<sup>(٢٦)</sup>، وأنشأ وكالات حكومية جديدة لاستعادة حيوية الاقتصاد، وبناء الطبقة الوسطى، منها وكالة لخفض البطالة، ووكالة ثانية لتنشيط الإنتاج الصناعي، وثالثة لضبط ومراقبة أسواق المال، ورابعة لدعم الإنتاج الزراعي، وأخرى لتوليد الكهرباء والتحكم في الفيضانات، ثم أنشأ في المرحلة الثانية من «الصفقة الجديدة» وكالتين لرعاية العمال، وأسس نظام الضمان الاجتماعي.

مثلت فترة تشريع الصفقة الجديدة في مرحلتها (١٩٣٣ - ١٩٣٥)،  
١٩٣٥ - ١٩٣٦) أساس تحول الولايات المتحدة من دولة:

«موسومة باللامساواة الاقتصادية الجسيمة، ومحطمة من الحزبية السياسية المريرة»، ومن فترة «اللامساواة التي ليس لها نظير في أي مكان آخر في العالم المتقدم» إلى فترة «الانضغاط الكبير» [يقصد الفترة التي تلت برنامج الصفقة الجديدة] حين تم «تضييق فجوات الدخل»، وكانت تلك الفترة بمثابة «بيان

---

(٢٦) بعد أن أزال «النيوليبرالية» ( الليبرالية المعاصرة ) - Neo Liberalism، آخر تلك القيود انهارت بورصة وال ستريت منذ سنوات قليلة، وقال جرينسبان رئيس الاحتياطي الفيدرالي السابق: إنى أرى الصرح الذى بناه ينهار. جاء فى التقرير الذى أعدته لجنة خاصة - طبقاً لقانون كشف الخداع والاستعادة [الاقتصادية والمالية]، الذى مرره الكونجرس واعتمده الرئيس - عن الأزمة المالية فى أمريكا أن المؤسسات المالية أنفقت ٢,٧ بليون دولار لتعظيم مصالحها فى الأعوام من ١٩٩٩ - ٢٠٠٨، ويعلق مصدر التقرير على ذلك: لا تُدهش اللجنة قوة تأثير مؤسسات التمويل على الإدارة والكونجرس! صدر التقرير تحت اسم: The Financial Crisis Inquiry Report بتاريخ يناير ٢٠١١ عن دار نشر PUBLICAFFAIRS فى نيويورك.

عملى يبين أن الإصلاح السياسى يستطيع أن يخلق توزيعاً للدخل أكثر عدلاً، ويستطيع فى سياق عملية الإصلاح أن يخلق مناخاً أصح للديمقراطية ... الانضغاط الكبير تبعه فى الحقيقة أعظم انتعاش اقتصادى مستمر فى تاريخ الولايات المتحدة. وزيادة على ذلك فإن إدارة روزفلت أبانت عملياً أن إحدى الحجج النموذجية التى تساق ضد التدخل فى الاقتصاد على نطاق واسع لم تكن صحيحة، وهى القول بأن التدخل على نطاق واسع سيقود لا محالة إلى فساد مساوٍ على نطاق واسع<sup>(٢٧)</sup>.

## أوروبا والليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism»

ربما سبقت معظم بلاد أوروبا الغربية الولايات المتحدة فى تطبيق الليبرالية الحديثة التى تقوم فيها الحكومة بدور فعال لصالح الشعب وحمايته من طغيان رأس المال.

وربما كانت ألمانيا بيسمارك (المستشار الحديدى) فى نهاية القرن التاسع عشر من أوائل الحكومات الأوروبية الحديثة التى خططت لنزع فتائل غضب وتمرد الشعب، فأسس برنامجاً إصلاحياً شاملاً<sup>(٢٨)</sup>، فى نفس الوقت الذى قاد فيه «الصراع الثقافى - kulturkampf - Culture»

(٢٧) هذه الفقرات من كتاب ضمير ليبرالى، پول كروجمان الاقتصادى الشهير، من منشورات العبيكان للنشر، طبعة ٢٠٠٩، صفحات: ١٠، ١٥، ٤٤، ٤٥، ٧٠.

(٢٨) قال پول كروجمان: أدخل أوتو فون بيسمارك رواتب تقاعد الشيخوخة وتأمين البطالة، بل أدخل التأمين الصحى الوطنى فى الثمانينات من القرن التاسع عشر، وقد تصرف من حساب سياسى لا من [دواعى] الرحمة، لقد أراد أن يحول دون المعارضة المحتملة لحكم القيصر، ولكنه بفعله ذلك أظهر أن وجود حكومة أكثر رحمة كان فى الحقيقة أمراً ممكناً - ضمير ليبرالى، صفحة ٢٧.

**Struggle**» وهو صراع ثقافى مرير لإخضاع الكنيسة الكاثوليكية لسلطة الدولة الناشئة، وحتى يضمن ولاء الكاثوليك للدولة.

كانت لفرنسا بعض الميول الاشتراكية منذ فرانسيس باييف (١٧٤٦ - ١٧٩٧) الذى شارك فى الثورة الفرنسية فكرياً وعسكرياً - ودعا لنظام اشتراكي يقوم على أساس المساواة المطلقة، والملكية العامة للأراضي، وتوزيع الناتج القومى بين المواطنين. كذلك دعا الاشتراكي الأشهر فى ذلك العصر، سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٥٠) - والذى شارك أيضاً فى الثورة الفرنسية، وقلها فى الثورة الأمريكية على الإنجليز، فكرياً وعسكرياً - وإن لم تكن أفكاره جذرية بدرجة باييف، وربما عاشت أطول لهذا السبب - دعا إلى الاهتمام بتقدم المعرفة خاصة العلمية، والعمل خاصة الصناعى، وإلى صياغة دستور جديد ومجتمع جديد يتخذ العلماء ورجال الصناعة فيه صدر الدولة بدلاً من الأمراء ورجال الكنيسة .

واحتلت بريطانيا مكاناً وسطاً بين ألمانيا من جانب، والولايات المتحدة - التى اشتهرت فى معظم تاريخها، سوى فترة الصفقة الجديدة من ١٩٣٢ إلى السبعينيات من القرن الماضى، بأن بها أعلى لامساواة فى العالم الصناعى - فقدم روبرت أوين أفكاراً اشتراكية - ونادى بالتخطيط على أسس أخلاقية، وإلى أن تشارك كل الطبقات فى شئون الدولة وخيراتها.

### ت- النيوليبرالية، أو الليبرالية المعاصرة (Neo Liberalism)

طبق الرئيس فرانكلين روزفلت برنامجه «الصفقة الجديدة» على الرغم من المعارضة الشرسة للمحافظين وأصحاب رؤوس الأموال، وسار نائبه هارى ترومان - بعد أن خلفه رئيساً - على نفس الطريق.

ثم جاء أيزنهاور، رئيس من الحزب الجمهورى، ولم يكن من صقوره، وكانت الأغلبية المحافظة فى الحزب الجمهورى قد تأقلمت - على مضض - على دولة الرفاه ومؤسساتها وأعرافها، واستمر الحال كذلك حتى أواخر السبعينيات من القرن الماضى، حين تولى پول فولكر رئاسة مجلس الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى فى نهاية حكم كارتر، وبدأ به المد الجديد لحكم رأس المال، وتخلّى الحكومة عن مسئولياتها الاجتماعية تجاه الشعب، والعمل بشعار «صدمة فولكر»، ثم حملة الشعارات التى أطلقها كل من ريجان بعد توليه الرئاسة (١٩٨٠ - ١٩٨٨)، وتاتشر فى بريطانيا بعد توليها رئاسة الوزراء (١٩٧٩ - ١٩٩٠): الحكومة الصغيرة هى أفضل حكومة - تدخل الحكومة هو المشكلة وليس الحل - السوق الحر والاقتصاد الحر هو الوسيلة الوحيدة للتقدم وحرية المواطنين، وأضافت تاتشر شعارها «ليس هناك بديل - There is no alternative» والذى تم اختصاره (T I N A)، فقالت بحتمية المشروع الاقتصادى الحر فى المسار الإنسانى. حطم كل منهما بقايا الاتحادات النقابية والعمالية، فلم يعتبر أن الناس أحرار فى إنشاء الاتحادات والنقابات، وحطما بذلك قدرة الموظفين والعمال على المطالبة بتحسين أحوالهم، بل وحتى على المطالبة بحقوقهم، وسخر ريجان من كل برامج المساعدة الحكومية حتى إنه اخترع قصص منفرة عمّن ساهم الانتهاءيين الذين يثرون من الإعانات الحكومية للفقراء والعاطلين، بينما قالت تاتشر: لا يوجد شيء اسمه المجتمع.

ولكن كيف استطاع ريجان وتاتشر تحقيق ذلك؟

لقد عمل الاثنان في ضوء نظرية جديدة لخصها دايفد هارفي في كتابه «A Brief History of Neo liberalism» الذي أصدرته جامعة أكسفورد في ٢٠٠٥، وترجمته العبيكان في ٢٠٠٨:

الليبرالية الجديدة في المقام الأول نظرية في الممارسات السياسية والاقتصادية، تقول بأن الطريقة المثلى لتحسين الوضع الإنساني تكمن في إطلاق الحريات والمهارات التجارية الإبداعية للفرد، ضمن إطار مؤسساتي عام يتصف بحمايته الشديدة لحقوق الملكية الخاصة، وحرية التجارة، وحرية الأسواق الاقتصادية. ويقتصر دور الدولة في هذه النظرية على إيجاد وصون ذلك الإطار المؤسساتي الملائم لتلك الممارسات. يتحتم على الدولة - مثلاً - ضمان قيمة وسلامة الموارد المالية، وعليها إقامة الهيكليات والوظائف العسكرية والدفاعية والأمنية والقضائية المطلوبة لحماية حقوق الملكية الفردية، واستخدام القوة إن اقتضت الحاجة لضمان عمل الأسواق بالصورة الملائمة... تعتبر الليبرالية الجديدة علاقات السوق قيمة أخلاقية بحد ذاتها، قادرة على أن تكون دليلاً للفعل الإنساني وبديلاً من كل المعتقدات الأخلاقية... فتسعى إلى إدراج كافة الأفعال الإنسانية ضمن حيز السوق.

أى أن وظيفة الدولة الأولى هي حماية رأس المال وإطلاق حريته في الأسواق، مع استخدام القوة إذا لزم الأمر لتحقيق ذلك، وقيم الأسواق هي البديل عن كل القيم الأخلاقية السابقة؟!.

«ولكن» الثانية هنا:

ولكن كيف أمكن لمثل هذه النظرية الرأسمالية المتطرفة أن تسود الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة، ومن سار بحذاها مثل بريطانيا، ومن تبعها من حكومات في أمريكا الجنوبية والشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا؟.

تبدأ الملحمة من أربعينيات القرن الماضي، حين اجتمع في منتجع مونت بيليران أربعة من الفلاسفة من أوروبا (ثلاثة من النمسا) وأمريكا: فريدريك فون هايك، ولودفيج فون ميسز، وكارل بوبر، وميلتون فريدمان..

تم في ذلك الاجتماع التفكير في المستقبل تحت وطأة عدة كوايس: هيتلر وموسوليني، والحرب العالمية الثانية، وستالين وفضائع الشيوعية، وامتدادها من الاتحاد السوفيتي إلى أوروبا الشرقية أو الشيوعية.

شغل بال الفلاسفة الأربعة أمرًا اعتبروه أهم ما في الإنسانية: الحرية، ولذلك اعتبروا أنفسهم ليبراليين بالمفهوم الأوروبي التقليدي، أي أنهم ليبراليون جدد<sup>(٢٩)</sup>، حتى يفصلوا أنفسهم عن الليبرالية الحديثة التي

(٢٩) هل اختطفوا عن عمد مصطلح الليبرالية الساحر الجذاب من البداية؟ أم أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يتحالفوا مع المحافظين واليمين المسيحي في الولايات المتحدة في مواجهة القوى الليبرالية (ولو حتى على الطريقة الأمريكية) بها؟ مع الأخذ في الاعتبار أن مصطلح ليبرالي جذاب في أوروبا وليس في أمريكا، وطبقًا لاستطلاع رأى بيو في يونيو ٢٠١٠، أفاد ٤٠٪ من الأمريكيين أنهم يُعرفون أنفسهم على أنهم محافظون، و٣٦٪ على أنهم معتدلون، و٢٢٪ فقط على أنهم ليبراليون.



سادت - منذ نهاية القرن التاسع عشر، وحتى بداية الربع الأخير من القرن العشرين - في أوروبا والولايات المتحدة، ونادت بتدخل الدولة في الاقتصاد والتمويل، وبإقامة دولة الرفاهية.

رأى هؤلاء الفلاسفة أن تدخل الدولة لا بد وأنه سيكون منحازًا لجماعات الضغط والمصالح الخاصة، وأنه ليس للدولة، أى دولة، القدرة على الإلمام بكل تفاصيل الحياة الاقتصادية والمالية، فكيف تستطيع التخطيط الشامل لها؟.

ناسبت تلك الأفكار تطلعات المؤسسات الكبرى وأصحاب الأموال في الولايات المتحدة؛ حيث كانت البيئة الراسخة الكارهة - إن لم تكن المعادية - لتدخل الحكومة وخاصة من «الواسپ - White Anglo-Saxon Protestant»، وبدأت تلك الأموال تؤسس مراكز الفكر التى تخدمها وتبسط تمويلها - ومن ثمّ تأثيرها إن لم يكن نفوذها - على الجامعات الأمريكية.

بدأت الحركة تدريجيًا تعادى مشروع روزفلت «الصفقة الجديدة»، أى الليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism» ولا تكتفى بتصحيحه أو الانفصال عنه، وقد وجدوا سندًا لهم في أمثال ويليام بكلى الذى أصدر في ١٩٥٥ كتابه المشهور «الله والإنسان في جامعة يال» أدان فيه الجامعة لما رآه فيها من اتجاهات معادية للمسيحية في التعليم، مع تدريسها للاقتصاديات الكينزية، وأصبح بكلى شخصية قومية مشهورة بكتابه ذلك؛ مما مكنه من أن يؤسس في ١٩٥٥ مجلة «ناشيونال ريفيو»، التى صارت بمثابة أول منابر الليبرالية الجديدة.

يقول كروجمان في كتابه:

ويجدر هنا أن نلقى نظرة على الأعداد الأولى من مجلة «ناشيونال ريفيو» لنحصل على إحساس بالكيفية التي بدا عليها محافظو الحركة قبل أن يتعلموا التحدث بحديث مصوغ في إشارات ورموز. فالشخصيات القيادية اليوم في اليمين الأمريكي هم سادة ما يدعوه البريطانيون «علم سياسة صافرة الكلب» أو الكلام المُرَّمَز، فهم يقولون أشياء تستهوى جماعات معينة بطريقة لا تستطيع فهمها إلا الجماعات المستهدفة فقط، وبذلك فهم يتجنبون أن يصير التطرف في مواقفهم واضحًا وضحًا عامًا. وكما سنرى فيما بعد في هذا الفصل، كان رونالد ريجان قادرًا على أن يعطى إشارة تعاطف مع العنصرية العرقية من دون أن يقول علانية أى شيء عرقى. وكما سنرى فيما بعد في هذا الكتاب، فإن جورج دبليو. بوش [الابن] يستخدم على نحو ثابت لغة تبدو فى أسوأ أحوالها متكلفًا قليلًا لمعظم الأمريكيين، ولكنها مفعمة بالمعنى بالنسبة إلى أشد المتطرفين، المتطرفين المتدينين تطرفًا إلى آخر أيام الدنيا. ولكن مواقف «ناشيونال ريفيو» فى الأيام الأولى كانت تبين بيانًا أكثر انفتاحًا.

وهكذا فى العام ١٩٥٧ نشرت المجلة افتتاحية تحتفى بتصويت تم فى مجلس الشيوخ، كان سيساعد

الجنوب، كما اعتقدت المجلة، على الاستمرار في حرمان السود من حق الانتخاب:

«السؤال المركزي الذي يبرز، هو ليس سؤالاً برلمانياً أو سؤالاً يجاب عنه بمجرد مراجعة مسرد حقوق المواطنين الأمريكيين الذين ولدوا متساويين، هو: هل كان المجتمع الأبيض في الجنوب مخولاً أن يتخذ مثل هذه الإجراءات حسب ما يكون ضرورياً لسيطر سياسياً وثقافياً، في مناطق لا يهيمن عليها عددياً؟ والجواب الرصين هو نعم، إن المجتمع الأبيض مخول بذلك؛ لأنه في الوقت الحاضر هو العرق المتقدم....»

إن توكيد المعايير المتمدنة والعيش بموجبها أكثر أهمية لأي مجتمع، وفي أي مكان في العالم، من الانحناء لمطالب الأكثرية العددية. وأحياناً لا تستطيع الأقلية العددية أن تسيطر إلا بالعنف: وآئذ يجب عليها أن تقرر إن كانت سيطرة إرادتها تستحق الثمن المزعج للعنف».

و«مسرد حقوق الأمريكيين، الذين ولدوا متساويين» الذي استبعدته الافتتاحية، سيكون هو، على ما يرجح، الوثيقة المعروفة باسم دستور الولايات المتحدة!. وما [هو الأمر] الذي كانت تشير إليه الافتتاحية حين تكلمت عن «الثن المزعج للعنف» الذي قد يكون أحياناً جديراً

بالدفع إذا لم يكن المجتمع يريد أن يتراجع؟ لقد أوضح ذلك ويليام بكلى فيما بعد فى العام ١٩٥٧، فيما كتبه بعنوان «رسالة من إسبانيا»:

«الجنرال فرانكو بطل قومى أصيل. ومن المسلم به عموماً أنه امتلك - فوق أمور أخرى - مزيجاً من المواهب، والدأب، والإحساس بالحق فى قضيته، وهى الصفات التى كانت مطلوبة لنتزع إسبانيا من أيدي الواهمين، والأيديولوجيين، والماركسيين، والعدميين الذين كانوا يُفرضون عليها فى الثلاثينيات، وهو نظام غريب جداً إلى درجة يرتكب فيها العنف ضد الروح الإسبانية، وينكر كل شىء حتى هوية إسبانيا التاريخية».

و«النظام الغريب جداً» الذى طاح به القائد العام فرانيسكو فرانكو، مع مساعدة حاسمة من موسوليني وهيتلر، كان فى الحقيقة هو حكومة إسبانيا المنتخبة ديمقراطياً.

والطرق التى استخدمها فرانكو لحماية «روح» إسبانيا اشتملت على القتل الجماعى، وعلى إرسال المعارضين السياسيين، وإرسال أى مشبوه بأنه معارض سياسى، إلى معسكرات الاعتقال. ولم يكن هذا كله فى الماضى حين امتدح بكلى الدكتاتور! فكما يلاحظ

المؤرخ پول بريستون، كان خصوم فرانكو «ما زالوا خاضعين لرعب الشرطة والإعدام»، حتى وقت متأخر من السبعينيات.

فى نصف القرن الذى مر منذ نشر تلك المقالات، تعلم محافظو الحركة أن يكونوا أكثر حذرًا. فى هذه الأيام يزعمون أنهم أبطال الحرية والاختيار الشخصى.

ولكن الحركة من البداية كانت غير ديمقراطية بشكل عميق، وكانت مهتمة فوق كل شىء بالدفاع عن الدين والملكية. فالفصل الأول من كتاب «الله والإنسان فى جامعة يال» ينتقد الجامعة بشدة لعدم كونها «موالية للمسيحية»، والفصل الثانى كان معنونًا «الفردية فى يال» كان هجومًا بشكل رئيسى على الأساتذة الذين درّسوا الاقتصاديات الكينزية - صفحة ١١١، ١١٢، ١١٣.

لم تكن «ناشيونال ريفيو» إلا الخطوة الأولى فى بناء - و/ أو شراء - نخبة المفكرين الذين يؤيدون ذلك الاتجاه ويخدمونه.

واعتمدت الحركة على التمويل السخى من أثرياء الولايات المتحدة، الذين يطمعون فى ضرائب وأجور وقيود أقل، ليجنوا أربابًا أكبر.

قاد الحركة ميلتون فريدمان من جامعة شيكاغو، وإيرفينج كريستول - اليسارى سابقًا والذى أصبح الأب الروحى لها - وأنشأوا مؤسسات فكر مثل «الصالح العام - Public Intrest»، و«معهد

المشروع الأمريكي - American Enterprise Institute»،  
و«بروسبيكت - Prospest»، وبعد ذلك «مؤسسة التراث -  
Heritage Foundation» وصار تأسيس مراكز الفكر التي تخدم تلك الحركة  
أمراً مربحاً؛ إذ مولتها كثير من المؤسسات التي تبرع على قمة قائمة  
فورتشن لأغنى ٥٠٠ شركة في العالم.

زاد زخم الحركة بحصول هايك على جائزة نوبل في الاقتصاد في  
١٩٧٤، ثم حصول فريدمان عليها في ١٩٧٦، وصادف ذلك دخول  
الاقتصاد في كساد، وارتفاع التضخم لتصبح فائدة البنوك سالبة، وهنا  
أصبح «على الطبقات العليا [الثرية] التحرك بشكل حازم وحاسم  
لحماية نفسها من الإبادة السياسية والاقتصادية» بكلمات هارفى -  
صفحة ٣٣.

جاء فولكر رئيساً للاحتياطي الفيدرالى الأمريكى، فاهتم بالقضاء  
على التضخم أكثر من البطالة، فانخفاض التضخم يفيد الثروة ورأس  
المال، بينما انخفاض البطالة يفيد بسطاء الشعب، وبدأ التخلي عن  
سياسات كينز التي أخرجت أمريكا من أزمة ١٩٢٩، والتي صنعت أكثر  
فترات التاريخ الأمريكى مساواة وعدالة اجتماعية لمدة أكثر من أربعة  
عقود، وبدأ المد المعاكس فى زيادة اللامساواة وزيادة ثروات الأغنياء  
مع زيادة بؤس الفقراء، وعودة أمريكا التقليدية، أمريكا القرن التاسع  
عشر، والثالث الأول من القرن العشرين .

ولكن لم تكن أموال الأثرياء والمؤسسات الأغنى، مع مراكز  
الفكر والجامعات التابعة لها، وتبشيرها بجنة الليبرالية المعاصرة

«Neo Liberalism» تكفى، كان لا بد من الاعتماد على قاعدة شعبية، ولا بد من التمثيل السياسى.

وبكلمات هارفى:

كان الحزب الجمهورى<sup>(٣٠)</sup> بحاجة إلى قاعدة انتخابية صلبة لاحتلال مواقع السلطة بشكل فاعل، وفى تلك المدة تقريبًا سعى الجمهوريون إلى التحالف مع اليمين المسيحى<sup>(٣١)</sup>.

وفى هذه الفترة، جاءت تاتشر فى بريطانيا، وجاء ريغان فى أمريكا.

بدأ عهد جديد فى الحركة بوصول تاتشر وريغان للحكم، فقادا حكومتهما لآفاق جديدة، وبالطبع عمل صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى على نشر النظرية التى أشار إليها هارفى سابقًا فى صفحة ٤٧، والنظام الذى تنادى به، وصاحب ذلك تيار العولمة.

ريغان وتاتشر وبول فولكر

وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى والخزانة الأمريكية

قاد الثلاثى الأول عالم الاقتصاد النيولبيرالى منذ بداية ثمانينيات القرن الماضى، وكانت أدواتهم مؤسسات الثلاثى الثانى.

(٣٠) حامل الفكر المحافظ الجديد «Neo Conservatism» الذى تشارك معه فى بعض القضايا الفكر الليبرالى الجديد «Neo Liberalism».

(٣١) يمثل اليمين المسيحى أكثر من ٤٠٪ من سكان أمريكا، والأصوليون منهم حوالى ٣٧٪، انظر كتاب «أصول التطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا» - صفحة ٣٦٢، «كيف نفهم الأصولية الإيفانجيليكية؟» والكتاب الأول من منشورات مكتبة الشروق الدولية والمجلس الأعلى للثقافة، والثانى مكتبة الشروق الدولية.

وبهذا الثلاثي، استطاعت الولايات المتحدة باتباع سياسة الترغيب والتهيب، أو العصا والجزرة، الضغط على كثير من دول العالم - أو اصطياها - لاتباع النيوليبرالية.

أغفل الفكر النيوليبرالي استخدام فكرته السابقة عن عجز أى حكومة عن جمع بيانات كافية، لتضع بها خطط كافية لتنشيط الاقتصاد، ورأى أن بمقدور الصندوق والبنك جمع بيانات كافية عن العالم، ووضع النظام المالى والاقتصادى الذى يصلح لمختلف دول العالم!.

ريجان جمهورى محافظ حتى النخاع، وكذلك تاتشر رئيسة حزب المحافظين البريطانى، وفولكر جاء فى آخر أيام كارتر ليضع أولويته الأولى ثروات ودخول الأثرياء على حساب البطالة ومصالح الطبقة الوسطى وما دونها.

يروى كروجمان فى كتابه «ضمير ليبرالى» من خطاب مشهور لريجان فى عام ١٩٦٤ نيابة عن جولدواتر - مرشح الرئاسة الخاسر - هاجم فيه العون المقدم للأسر التى تضم أطفالاً قُصّر «بقصة عن امرأة لها سبعة أطفال أرادت الطلاق لأن شيكها سيكون أكبر من راتب زوجها، وهى قصة زعم أنه سمعها من قاضٍ لم يسمه فى لوس أنجلوس!». وأظهر ريجان قسوة قلب لافتة بقوله: قيل لنا منذ أربع سنوات إن ١٧ مليون نسمة كانوا يأوون إلى الفراش جوعى فى كل ليلة - وهو يشير فى هذا إلى قول الرئيس



جون كنيدي - وقال ريجان: حسنًا.. من المرجح أن ذلك كان صحيحًا..  
لقد كانوا جميعًا يتبعون حمية [ريجيا<sup>(٣٢)</sup>]» - صفحة ١١٤، ١١٥.

برع ريجان كرئيس، وتبعه في ذلك جورج بوش الابن، في حشد قوى أصحاب الأعمال الكبرى، مع الواسط «الأنجلو ساسكون بروتستانت البيض - White Anglosaxon Protestant» وبخاصة اليمين المسيحي، مع المجمع العسكري الصناعي، بإثارة مخاوفهم من الاتحاد السوفيتي - إمبراطورية الشر<sup>(٣٣)</sup> - وخسارتهم ممتلكاتهم وأموالهم، ورفع الكتاب المقدس في يده قائلًا ومكرراً: في هذا الكتاب حل مشاكل أمريكا.

أما الفقراء، فقد كرر وأكد أن اللوم يقع عليهم، فهم مسئولون عن فقرهم بسبب تقاعسهم في حق أنفسهم، وهو قول تقليدي قديم في أمريكا، وكرر وأكد أن خفض الضرائب على الأثرياء وأصحاب الدخل العالية هو الوسيلة الرئيسية لتنشيط الاقتصاد، وذلك طبقاً لحكمة النيوليبرالية التي تقول بأن ازدياد ثروات الطبقة العليا، سيؤدي حتماً إلى انسكابها لتصب على من تحتها، وأنه لا بد من وجود نسبة بطالة حتى تنضبط الأجور وتخرج أفضل طاقات العمل<sup>(٣٤)</sup>.

(٣٢) عاينا مثل هذا التكبر والاستهتار بأحوال الفقراء في أقوال عائلة مبارك ومن حولهم: الشعب المصري لا يريد أن يتحرك - المصري عايز يقعد جنب أمه - المصريين عايزين ياخذوا كل حاجة من غير ما يشتغلوا - المصريين اتعودوا على الشكوى.

(٣٣) أما بوش الابن فوضع الإرهاب الإسلامي وعلى قمته بن لادن بدلاً من الاتحاد السوفيتي، وأعلن عن حرب مفتوحة المكان والزمان ضده، مع رفض لتحديد المقصود بالإرهاب.

(٣٤) اقتبس حسنى وجمال مبارك كثيراً من ذلك التوجه في العشرين سنة الأخيرة.

عاد ريجان بأمريكا لتسلك سبيل اللامساواة المتفاقمة الذي سلكته طوال تاريخها، باستثناء فترة فرانكلين روزفلت وبرنامج «الصفقة الجديدة» والعقود الأربعة أو الخمسة التي تبعتها.

أفاض باحثو مراكز الفكر وأساتذة الاقتصاد النيوليبرالي في تأكيد أن أزمة ١٩٢٩ كان سببها الرئيسي تدخل الحكومة، مخالفين كل المعلومات التاريخية الصحيحة عن تلك الفترة، والتي سخر منها فرانكلين روزفلت قائلاً كيف تكون أفضل حكومة هي الحكومة التي لا تبالي بالشعب؟!.

وأفرد پول كروجرمان فصلاً في كتابه سماه «الافتراق الكبير»، فصل فيه أثر السياسة النيوليبرالية في العودة القوية لتلك اللامساواة المتصاعدة، وقد عاين وقاسى الشعب المصرى آثار السياسة المثيلة التي طبقها جمال مبارك والعصابة التي جمعها حوله، حتى إنها مثلت أحد الأسباب الرئيسية لثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

توالت أزمات تطبيق النيوليبرالية في أمريكا الجنوبية وآسيا، وظهرت مأس وانهيارات أصابت الدول التي: «حررت الاقتصاد»، والتي اتبعت «إجماع واشنطن<sup>(٣٥)</sup>»، والتي «أعدت هيكله الاقتصاد»، و«تبعت رويشتة البنك الدولي الإصلاحية»، و«نفذت برامج التكيف البنوي للاقتصاد»، و«حررت أسواق المال بامتياز» كوارث اقتصادية واجتماعية، وأمثلة لها: المكسيك - الأرجنتين - شيلي - تايلاند - إندونيسيا - ماليزيا.

(٣٥) إجماع واشنطن: يمكن تلخيصه في البنود الآتية: خفض عجز الموازنة (وهذا لا تعمل به حكومة واشنطن) - تحرير الأسواق للتجارة (وهذا أيضاً مخالفه واشنطنون إذا احتاجت لذلك مثلما فعلت في الصلب) - تحرير حركة رؤوس الأموال من أى قيود - تنمية اقتصاد يتجه للتصدير (وازدادت أمريكا أعلى من صادراتها).

والجدير بالذكر أن أولى الدول في جنوب شرق آسيا خروجا من أزمة ١٩٩٧ - ١٩٩٨ كانت ماليزيا التي رفضت رويشتة علاج البنك الدولي وعملت بعكسها.

أما أمريكا نفسها ، فقد ساءت أحوالها الاقتصادية بنهاية فترة جورج بوش الابن ،حتى فضلت رئيساً أسود<sup>(٣٦)</sup> على المرشح الجمهوري الأبيض؛ لأن غالبية الشعب الأمريكي رفضت نتائج النظام الذي وضع بذرته ريجان، ولم يستطيع كليتون الخروج عنه، بينما يحاول أوباما الآن إصلاحه.

وجدير بالذكر هنا ثلاث شهادات أمريكية عن النيوليبرالية:

أولها كتاب صدر لأستاذ الاقتصاد الأمريكي الحاصل على جائزة نوبل د. جوزيف ستيجلتيز، بعنوان: «السقوط الحر (الانهيار): أمريكا، الأسواق الحرة، وغرق الاقتصاد العالمي - Free Fall: America, Free Markets, and the Sinking of the World Economy». وكذلك كتب مقالاً في مجلة «فانيتي فير» عن آثار تحرير الأسواق في أمريكا: ١٪ يحصدون ربع الدخل ويكدسون ٤٠٪ من الثروة، وربط تلك اللامساواة الهائلة بالتطرف اليميني والعنصرى في أمريكا<sup>(٣٧)</sup>.

(٣٦) عندما أراد أوباما تعيين قاضية من أصل إسباني (لاتينو)، اعترض بعض الجمهوريين بحجة أنها عنصرية ضد البيض، وأفلت تقدير عن نسبة أصوات أوباما بين ذوى الأصل الإسباني، أظهر أنها حوالى ٩٠٪، وبالطبع يمكن استنتاج أن أصوات كل الملونين (الإسبان والسود والآسيان) بالإضافة للمسلمين، كانت بنفس النسبة أى حوالى ٩٠٪، وهم يقاربون ٤٠٪ من الشعب الأمريكى، ويعنى هذا أن البيض صوتوا لصالح ماكين بنسبة حوالى ٦٠٪.

(٣٧) ألقى جوزيف ستيجلتيز محاضرة بمكتبة الإسكندرية في أغسطس ٢٠١١، قال فيها إن الاقتصاد الليبرالى الجديد فشل، وانتقد سياسات صندوق النقد والبنك الدوليين، وقد نشرت الأهرام مقتطفات من أقواله في الصفحة ٢١ لعدد ١٣ أغسطس ٢٠١١.

والثانية لجيمس بيكر، وزير الخارجية الأمريكي الأسبق قال فيه:  
لولا القوة العسكرية الأمريكية، واستخدام العالم للدولار كعملته  
الدولية لأفلست أمريكا. وهذا التصريح نشرته جريدة الأهرام في ٣٠  
أبريل ٢٠١١.

وثالثها تصريح أدلى به جرينسبان، رئيس الاحتياط الفيدرالي الأمريكي  
السابق بعد أزمة وال ستريت الأخيرة، قال فيه: إنى أرى الصرح الذى  
بنيناه ينهار<sup>(٣٨)</sup>.

ويحق للمرء أن يتعجب أن حكومة ما بعد الثورة - طبقاً لتصريحات  
الوزير السابق سمير رضوان - ما زالت تقتدى وتتبع النموذج النيوليبرالى  
في الاقتصاد، حتى إن الوزير صرح مرة: لا ردة عن نظام السوق الحر...!  
أى إن من يختار نظاماً اقتصادياً مختلفاً عن النيوليبرالية، يكون بمثابة  
من يرتد عن دينه! ويعترض على الضرائب المتصاعدة قائلاً: ده كلام  
مصاطب! وأيده في ذلك فوراً مؤسس أحد الأحزاب الليبرالية الجديدة  
قائلاً: إن حزبه يرفض الضرائب المتصاعدة!.

---

(٣٨) تحمل الشعب الأمريكى أعباء عبث وطمع رجال المال في وال ستريت، كما تحملها  
من قبل أيام أزمة القروض والمدخرات (S & L) تحت حكم ريجان. وجاء في تقرير  
الأزمة المالية - الذى أشرنا إليه سابقاً - أن القطاع المالى حصل على ٢٧٪ من إجمالى أرباح  
المؤسسات الأمريكية!

### ٣- الليبرالية الثقافية

جوهرها هو حق كل شخص في التحرر من أى قيم ثقافية أو دينية، وأن يفعل ويقول ما يناسبه، ما دام لم يسبب ضررًا لأحد بذاته، ولا اعتبار هنا للمجتمع، فحسب قول تاتشر لا يوجد شيء اسمه المجتمع. تنادى بحرية العقيدة، فلكل شخص الحق في اتباع الدين الذى يريده، أو عدم اتباع أى دين على الإطلاق.

وتنادى بحرية ممارسة الجنس، وحرية تشكيل الأسرة بزواج الرجال وممارستهم الجنس معًا، وبزواج النساء وممارستن الجنس معًا. كذلك تنادى بحرية الحامل في إجهاض نفسها، وبالطبع تنادى بحرية تناول المخدرات.

تعارض الليبرالية الثقافية أى نوع من الرقابة، سواء كانت على الكتب أو المسرح أو السينما والتلفزيون، وعلى كل أنواع الفنون وما يُسمى «الآداب الإباحية!» بصفة عامة.

## ٤- الليبرالية الإمبريالية

هذه الإمبريالية الطريفة، التي يعنى عنوانها الإمبريالية التحررية، هي عنوان مدخل جاء في قاموس برويرز بوليتيكس، يتحدث عن أعضاء البرلمان الإنجليزى الليبراليين الذين أيدوا الإمبريالية، ونصه:

«هم أعضاء البرلمان الذين أيدوا التوسع الإمبريالى البريطانى - دون أن يذهبوا بعيداً في ذلك مثلما ذهب جوزيف تشمبرلاين - وأخذوا جانب المحافظين من أمثال إسكويث، إدوارد جراى، وآر. بى. هالدان، وكان أكثرهم بروزاً وتصميماً على الإمبريالية اللورد روزيرى».

وجدير بالذكر أن تلك الليبرالية الإمبريالية اعتمدت على قاعدتين أساسيتين: البروتستانت أصبحوا شعب الله المختار، وبقية العالم مُستبعد من اختيار الله، والثانية هي داروينية البقاء للأصلح، والتي نسج منها بعض العلماء نظريات عن تفوق العرق الأبيض.

ومن هاتين القاعدتين، سك الإمبرياليون عدة مفاهيم لاستباحة الآخر - أرضه، ماله، عمله، وإذا لزم الأمر نفسه - حمل الرجل الأبيض، مسئولية الرجل الأبيض، نشر المسيحية، نشر الثقافة المسيحية.

## الخلاصة

إذا أردنا وصف النيولبرالية، أو الليبرالية المعاصرة بكلمات قليلة، يمكننا القول بأن قلبها وعقلها حرية الفرد، والفردية، قبل أى شيء، وبالتأكيد قبل المجتمع، وقول تاتشر مشهور: وليس هناك شيء اسمه المجتمع، ولذلك فإنها لا تهتم كثيراً بالمساواة ولا تهتم طبعاً بالعدالة الاجتماعية، بل ترفض كل ما يُقيد الحريات الاقتصادية والمالية حتى لو أدى إلى ثراء القلة وفقر وبؤس الكثرة، وإنها والديمقراطية ليستا على وفاق تام، فهي لا ترضى من حكم الأغلبية أن يمس حرية الفرد ولا أن يهتم بالجماعة على حساب الفرد.

ونقتبس هنا رأى أكاديمي عن حال الليبراليين في مصر والعالم العربي، من خاتمة الدراسة التي قدمتها الأستاذة الدكتورة أميمة عبود لمؤتمر «مستقبل الليبرالية في العالم العربي» الذي عقده مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة في ١٦، ١٧ مايو ٢٠١١، وجاء فيها:

في ضوء ما سبق وفي إطار تقويم الورقة لمستقبل الخطاب الليبرالي في العالم العربي، نجد أن الخطاب الليبرالي العربي قد ظل يكرر ويعيد المفاهيم والأفكار الليبرالية التقليدية التي أصبحت في مجتمعاتها محل مراجعة وإعادة نظر من ناحية، ويروج للأفكار المرتبطة بأجندة المصالح السياسية الغربية، والأمريكية على وجه الخصوص، من ناحية أخرى<sup>(٣٩)</sup>.

(٣٩) على سبيل المثال نشرت جريدة الشروق في ٨/٧/٢٠١١ في الصفحة الثالثة عن =

= دراسة لمعهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى تنصح بضرورة مساعدة المنظمات التي تدرب الليبراليين حتى يستطيعوا منافسة الإخوان في الانتخابات، وإبعاد هذه الأحزاب عن التحالف مع الإسلاميين.

بينما نشرت جريدة المصري اليوم بتاريخ ٢٠١١/٦/١٩ قول بلير: أدعو مصر إلى تأجيل الانتخابات، والإخوان هم المستفيدون من الاستعجال. صفحة ٣.  
ما سبق مثالان من أمثلة عديدة تبين وتؤكد هذا الاتجاه.

ومن العجيب أن بعض القوى السياسية المصرية تشكو للدبلوماسيين والسياسيين الغربيين من قوة الإخوان المسلمين وحسن تنظيمهم، حتى إن أولئك «الضيوف» شكوا من تلك الشكوى! وهكذا جاء عنوان عامود سلامة أحمد سلامة في جريدة الشروق عدد ٣٠ مايو في صفحة ٣.

وجاء في أهرام ١٨ أغسطس ٢٠١١، الصفحة التاسعة:

سفير بريطانيا الجديد للأهرام: ... الأفضل عدم مزج الدين بالسياسة.

بينما نشرت المصري اليوم بتاريخ ٨/١٨، الصفحة الثالثة:

المعونة الأمريكية تكشف: أخطرنا السلطات المصرية أننا سنوزع ١٦٥ مليون دولار على الجماعات المؤيدة للديمقراطية.

وفي عدد ٨/٢٤ على الصفحة الخامسة:

الكونجرس يهدد بقطع المساعدات عن مصر إذا ألغيت معاهدة السلام... مستوى مشاركة جماعة الإخوان المسلمين في الحكومة الجديدة له تأثير على المساعدات الأمريكية لمصر، موضحة أن حجم الدور الذي ستلعبه الجماعة في الحكومة المصرية المقبلة وسيطرتهما على السياسة العامة للبلاد سيحدد مستوى المساعدات الأمريكية.



# الشريعة الإسلامية



## مقدمة تاريخية

«تأقت النفوس من أبناء شعب مصر العظيم منذ فترة طويلة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، كما تطلعت إلى اليوم الذي يكون فيه مرد الأمر إلى أحكام الله تبارك وتعالى، التي فُطرت عليها طبيعة هذا الشعب».

لم يقل هذه الكلمات الإخوان المسلمون، ولا السلفيون، ولا الجماعات الإسلامية، ولكن كانت تلك مقدمة الكتاب الذي أصدره مجلس الشعب المصرى فى عام ١٩٨٣ بعنوان: تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب.

قبل ذلك فى ٢٢ / ٩ / ١٩٨٢ أعلن وزير الأوقاف إبراهيم الدسوقى أنه «تم الانتهاء من إعداد ٩٥٪ من قوانين الشريعة الإسلامية، وأنه يجرى تطويع النسبة القليلة وفقاً لأحكام الشريعة للبدء فى تطبيق ما تم تقنينه فى أقرب فرصة<sup>(٤٠)</sup>».

نعود قليلاً لما قبل ذلك، فنجد فى عام ١٩٧٨، بعد خمس سنوات فقط من العبور العظيم للجيش المصرى لسيناء فى ١٩٧٣ رغم أنف ما كان يُسمى القوتين العظميين فى ذلك الوقت، أن الرئيس المنتخب لمجلس الشعب، الدكتور صوفى أبو طالب يعلن - وفى خلفيته تحرير سيناء عسكرياً، وفى تطلعاته هو وجموع الشعب المصرى المؤمن بإنجاز تحرير واستقلال تشريعى

(٤٠) تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب، صفحة ٤.

وقانونى - «آن الأوان لإعمال نص المادة الثانية من الدستور<sup>(٤١)</sup>» التى تقضى بأن مبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع<sup>(٤٢)</sup>، بحيث لا يقتصر الأمر على عدم إصدار تشريعات مخالفة لهذا النص، بل يتعداه إلى مراجعة كل قوانيننا السابقة على تاريخ العمل بالدستور وتعديلها بالاعتماد على الشريعة الإسلامية الغراء<sup>(٤٣)</sup>».

تطبيق الشريعة يعنى الشريعة ككل وليس فقط الأحكام والحدود، فعلى سبيل المثال تأمر الشريعة بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وتأمر بأداء الأمانات إلى أهلها وتأمر بالصدق والرحمة والتكافل، وباكتساب العلم، وبالعامل والتجارة والسعى وراء الرزق وسبل القوة، وأمرت بمكارم الأخلاق، وبينت أن خير الناس أنفعهم للناس، وخيرهم خيرهم لأهلهم، وأمرت المسلمين بالشورى والوحدة، وأمرت بجهاد النفس، وبالجهد ضد الظالمين مسلمين أو غير مسلمين، فجاء فى الحديث أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وأمر القرآن بقتال الفئة الباغية، وأمرت بإعداد الجيش القوى بقدر الاستطاعة، ونهت أن يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، وعن الغش والتزوير والكذب، وعن النفاق، والاحتكار، وعن التقاعس عن العمل للدنيا والآخرة، وعن الطمع والشح والأثرة، واتباع الهوى، وعن أن يكون المرء إمعة.

(٤١) نصت كل دساتير مصر على أن الإسلام دين الدولة: دستور ١٩٢٣، دستور ١٩٣٠، دستور ١٩٥٤، دستور ١٩٥٦، دستور ١٩٦٤، وأخيراً دستور ١٩٧١.

(٤٢) تم تعديل المادة فى عام ١٩٨٠ لتصبح: مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع.

(٤٣) تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب، صفحة ٣.

ترى الشريعة أن الناس إخوة، فهم جميعًا خلق من مخلوقات الواحد الأحد، كلهم لآدم وآدم من تراب، وكلف الله الناس بالخلافة على الأرض لإقامة الحق والعدل وإعمار الأرض، وفي ذلك أعلى تكريم من خالق الأكوان، وقال - سبحانه - ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣]، فليست العزة باللون ولا الجنس ولا غيره، ومقاصد الشريعة الرئيسية هي حماية: النفس، والدين، والعقل، والمال، والعرض، وفي هذا تكريم للإنسان كما أمر الله بتكريمه.

تمثل الأحكام والحدود جزءًا صغيرًا من الشريعة، وتطبيق الشريعة كلها مشروع طموح يتطلب عملاً دؤوبًا بتخطيط واع شامل، والعقبات أمامه كثودة متعددة، فهناك قوى متربصة وجاهزة بكل الوسائل والأساليب، ومستعدة لكل أنواع المواجهة لإجهاض هذا المشروع، والذي إذا نجح في مصر، ستصبح مصر به نموذجًا وكعبة يتطلع إليها ربع سكان العالم من العرب والمسلمين، وربما يتطلع إليها قطاع كبير آخر من دول أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية التي اكتوت بظلم القرون القليلة الماضية. باختصار يرى البعض في المشروع مصدر إزعاج خطير للمشروع الغربي لسيادة العالم، ولهذا قالوا إنه لأول مرة في تاريخ البشرية، تعمل كل أجهزة مخابرات العالم في ميدان واحد، ميدان التحرير!.

يرى البعض أن يبدأ المشروع بتقنين الشريعة ومبادئها، والمقصود بذلك أن تكون القوانين في مصر نابعة من أحكام الشريعة، وبالطبع هذا لا يمنع من الاستفادة من التجارب الناجحة في أي من دول العالم، بشرط ألا ينتهك هذا أحكام الشريعة ولا مبادئها.

كانت مصر تستقى قوانينها من نبع الشريعة لمدة تزيد على عشرة قرون، حتى بدأ التدخل والنفوذ الأجنبي يسيرون في دم الشعب المصري كالسم، فبدأت حكومات مصر منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر ترضخ لذلك النفوذ، وأجبرت على إعطاء الامتيازات الأجنبية، ثم أجبرت على إنشاء المحاكم المختلطة، ثم المحاكم الأهلية، وجاء الغزو والاحتلال البريطاني في عام ١٨٨٢ بقواته العسكرية وخططه الاقتصادية والمالية، والتي احتاجت لغزو لثقافي، ومن ثم تشريعي وقانوني ليستتب أمر الاحتلال، واستنزاف خيرات مصر وتطويعها لذلك.

ولكن تنبّهت الزعامات الوطنية لمخاطر تلك الهيمنة والغزوة الثقافية خاصة في التشريع والتقنين، والتي رأتها لا تقل خطراً عن الغزوة العسكرية، إن لم تزد، فتمارها هي الرضا<sup>(٤٤)</sup>، أو على الأقل القنوع والخنوع لذلك الاحتلال، فلا يحاربه أو يقاومه أحد.

برزت أسماء لامعة في ذلك الكفاح للاستقلال الثقافي في التشريع والتقنين، منها رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذي طالب بأن تكون الشريعة مرجع التحديث، وحذر كثيراً من خطر التحول لأخلاق أوروبا وأحكامها، وطالب بأن تكون السيادة العليا في مجال التشريع والقانون للشريعة الإسلامية، وواصل محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) دعوة الطهطاوى.

وظهر قدرى باشا وزير الحقانية الذى وضع مؤلفاته الثلاثة: مرشد الحيران، قانون العدل والإنصاف، الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية، في أعوام ١٨٩٠ - ١٨٩٣، واعتبره السنهورى زعيم مدرسة تقنين الشريعة ورائدها الأول في مصر.

(٤٤) اعتبر بعض المسئولين في عهد مبارك، ومن بينهم وزارة الثقافة، أن غزو نابليون فتح، يستحق أن يحتفل به المصريون.

كذلك برز السنهوى الذى استمر فى المطالبة بتقنين الشريعة، وعمل على تكثيف الجهود لإعادة مرجعية الشريعة الإسلامية، فأثمرت جهوده ومن معه عن القانون المدنى فى عام ١٩٤٨، بعد أن نجحت مصر فى إنهاء عهد الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية، لتعود لمصر- التى كانت تحت الاحتلال البريطانى فى ذلك الوقت، وتحت الملكية الفاسدة - حصة كبيرة من استقلاليتها التشريعية، وبدأت العمل به فى عام ١٩٤٩ .

وبعد ثورة ١٩٥٢، أوصى المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية فى عام ١٩٦٥ بالعمل على تنقية التشريعات من كل ما يخالف حكم الإسلام، وفى عام ١٩٧٦ أوصى المؤتمر الرابع للمجمع بتشكيل لجنة لعمل الدراسات اللازمة لمشروع الأخذ بأحكام الشريعة، وكما علمنا سابقاً، توج كل ذلك قرار مجلس الشعب فى عام ١٩٧٨ بالبده فى مشروع طموح لتقنين الشريعة، استجابة للمادة الثانية من الدستور التى تنص على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هى مصدر رئيسى للتشريع، والتى تم تعديلها فى عام ١٩٨٠ لتصبح: المصدر الرئيسى للتشريع.

وجدير بالذكر أن المركز القومى للبحوث قام باستطلاع رأى فى عام ١٩٨٥ حول تطبيق أحكام الشريعة على جرائم الحدود، وجاءت نتائجه كالتالى:

\* بلغت نسبة الموافقة ٩٨٪ بين المسلمين، و٦٣٪ بين المسيحيين.

\* وافق على التطبيق الفورى ٣١٪ من المسلمين، ٣٢٪ من المسيحيين، بينما بلغت نسبة الموافقين على التطبيق التدريجى ٦٩٪ عند المسلمين، ٦٨٪ عند المسلمين<sup>(٤٥)</sup>.

(٤٥) تقنين الشريعة بين المجتمع والدولة، د. إبراهيم البيومى غانم، مكتبة الشروق الدولية، سبتمبر ٢٠١١.

يبرز بعد ذلك السرد السريع التساؤل: كيف انتهت القوى الوطنية في مصر المحتلة، وتمت حكم الملكية الفاسدة، سواء كانت فؤاد أو فاروق، لأهمية الاستقلال التشريعي والقانوني لمصر، وكافحت من أجله حتى أصدر السنهوري ومن معه القانون المدني في ١٩٤٨، ثم استمرت القوى الوطنية في المطالبة بتقنين الشريعة بعد ثورة ١٩٥٢، وحتى بدأت جهود مجلس الشعب في عام ١٩٧٨ في مشروع عملاق لتقنين الشريعة، واستطاعت اللجان المتعددة إعداد ما يقرب من ٩٥٪ من المطلوب في سنوات قليلة، ثم ينقلب الحال بدءاً من منتصف الثمانينات، فتختفي دراسات اللجان القانونية بأساتذتها وخبراتها في أدراج مجلس الشعب، ثم يُحارب هذا المد الوطني، وتبأرى أجهزة الإعلام الحكومية وبعض الخاصة في تخويف الشعب من الشريعة الإسلامية، حتى أصبح من يُطالب بها وكأنه يرتكب جريمة؟.

هناك بحث للدكتور محمد كمال إمام عن: الخلفية الفكرية والتشريعية والاجتماعية لاستبعاد تطبيق الشريعة الإسلامية، نشرته مجلة المسلم المعاصر في عددها الثامن والخمسين الصادر في ١٤١١هـ / ١٩٩٠م<sup>(٤٦)</sup>.

---

(٤٦) نقتطف من هذا البحث بعض النقاط المهمة:

\* تشير وثائق الفكر المصري الحديث إلى دور الاستعمار في إثارة هذه المعركة، وقد استخدم في ذلك غير المسلمين - خاصة الأقباط - الذين عقدوا المؤتمر القبطي الأول في شهر مارس ١٩١١ وجوهر مطالبهم إقامة دولة علمانية في مصر.

\* التشريع الإسلامي إذن كان أهم أدوات المقاومة في معركة الاستعمار والتغريب، وهذا ما لاحظته الفكر الاجتماعى الفرنسى «جوستاف لوبون» عندما قال «أما الدول التي تأسست على أركان دين آمن به العموم، فقد كانت قوتها أعظم وسلطانها أوسع، فإذا بقى القانون الديني حياً - يقصد الشريعة - يظل قادراً على القيام بمهمة التأليف بين المصالح والمواطن».



\* فبقاء الإسلام في المجال التشريعي، هو الوجود الإسلامي الحقيقي، وهو ما عبر عنه «جب» بقوله «ولعلني غير مخطئ في اعتقادي، وإن كان اعتقاداً صادراً عن التصور والحدس، أن احترام الشريعة لا يزال لب التفكير الإسلامي، وأن الإبقاء على الشريعة يرتبط به بقاء الإسلام، أو زواله».

\* فدخل التشريع الأجنبي إلى البلدان الإسلامية جاء عن عمد وسبق إصرار، وكان يمثل خطوة الاستعمار الأولى في السيطرة على المسلمين، ووسيلته لإقامة جسور التبعية على المسلمين، فمنذ عام ١٧٩١م بدأ الحكم الإنجليزي في الهند بالغاء التشريع الإسلامي، وحدث ذلك في مصر منذ علت اليد الاستعمارية فيها مع أواخر عصر إسماعيل وفي عصر الخديوي توفيق، ولم يمر عام على دخول الاحتلال الإنجليزي إلا وكانت التقنيات المصرية منقولة عن مجموعة نابليون نقلًا يكاد يكون حرفيًا، وحدث مثل ذلك في الجزائر وتونس والمغرب وبقية أجزاء العالم الإسلامي. وعندما اكتملت دائرة تحيية التشريع الإسلامي، أصبح العالم الإسلامي فريسة سهلة للاستعمار.

\* وكما قال القومندان الفرنسي «مارتي» أحد أعمدة الاحتلال الفرنسي في الجزائر: «كل تدخل من قبل الفقيه، وكل ظاهرة إسلامية يجب منعها بصرامة تامة».

\* محمد علي كلف «الشيخ محمد الجزائري» المفتي أن يضع له قانوناً مدنيًا على مثال وترتيب قانون نابليون يكون في الوقت نفسه مأخوذاً من الشريعة الإسلامية، وقد بذل الشيخ الجزائري جهداً كبيراً لإنجاز المشروع إلا أن الظروف الدولية أجهضت محاولته. وقد روى مثل ذلك عن الخديوي إسماعيل ورفاعة الطوطوي، وفي عهد الخديوي توفيق عندما بدأ التفكير جدياً في تقنيات حديثة شاملة اتجهت الأنظار إلى المصدر الطبيعي لها وهو الشريعة الإسلامية، فقد جاء في مذكرة حسين باشا ناظر الحقانية لمجلس النظار بتاريخ ٢٦ محرم سنة ١٣٠٠هـ - ٧ ديسمبر ١٨٨٢م أنه «ترأى للحكومة وضع قانون مطابق للشريعة الغراء، وأحيل عمله على سعادة قدرى باشا، وتشكل قوميون آخر لترتيب المجال، وفجأة أثرت الحكومة تشكيل لجنة لوضع التقنيات الأهلية برئاسة حسين فخري، وهو غير مؤيد لقانون مستمد من الشريعة الإسلامية ومن أعضائها المسير «فاشير» النائب العام لدى المحاكم المختلطة، و«موندو» الإيطالي، و«لوري» الإنجليزي وكانا قاضيين لدى المحاكم المختلطة، وبطرس غالي وكان وكيل وزارة الحقانية، وقد وضعت هذه اللجنة التقنيات الأهلية المنقولة عن التقنيات المختلطة، ويكاد يكون النقل حرفيًا، ولما كانت التقنيات المختلطة قد تم إعدادها في ظروف مريية، وبطريقة غريبة، صارت القوانين الأهلية الجديدة على نحو يخالف كل القواعد العلمية المعمول بها في إصدار التشريعات».

\* وفي محضر مجلس النظار بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ عارض على مبارك ما جاء في التقرير بخصوص الحجر والتقييد على اختصاص المحاكم الشرعية. وأصر مبارك على رأيه هذا ومع عمر لطفي كما هو ثابت في محضر مجلس النظار، وقد اضطرد عدوان المحاكم الأهلية على =

= اختصاص المحاكم الشرعية، ويذكر رشيد رضا أن الحكومة أرادت أن تجعل في المحكمة العليا عضوين من مستشاري محكمة الاستئناف الأهلية، فهاج المسلمون في مصر وحملوا على الحكومة في الجرائد واجتمع علماء الأزهر للإنكار على الحكومة، وكان من المتحمسين من يتهم الأستاذ الإمام (محمد عبده) بالرضا بالمشروع وتأييد الحكومة فيه، فسألته عن ذلك فعلمت منه أنه سعى في مقاومته سرًا جهد طاقته؛ لأنه يضر ولا يفيد المطلوب، وقال إن الواضع الحقيقي له هو بطرس باشا لا ناظر الحقانية، ومن مقاصد بطرس باشا فيه التمهيد لإلغاء المحاكم الشرعية.

\* وقد ذكر أفرام البستاني في شرحه لقانون العقوبات الأهلي «أن هذا التشريع لقي معارضة شديدة لمخالفته للشرعية وعوائد البلاد، وذلك ثابت في المضابط ومحاضر مجلس النظارة».

\* وقد حاولت الحكومة فور إصدارها للتقنينات الأهلية - تفاديًا لوصمها بمخالفة الشرعية - تخريج أحكام هذه القوانين على مذاهب الفقهاء.

\* ففى سنة ١٩٠٦ كتب على أبو الفتوح باشا، وقد أصبح وكيلًا لوزارة المعارف «ما أجدر الحكومات الإسلامية باستنباط قوانينها وأحكامها من الشريعة، مع اختيار القول الأكثر مناسبة للزمان والمكان، لتكون هذه القوانين والأحكام أكبر احترامًا في النفوس، وأشد موافقة لأخلاق وعادات من وضعت له ... فعلينا أن نتمسك بشريعتنا الغراء، فهي مؤسسة على الاعتدال الذى به يكون الإنسان سعيدًا في بيته ووطنه، ومع جيرانه ومعاشريه مهما اختلفت مذاهبهم وتنوعت أجناسهم»، أما العلامة عبد السلام ذهني، فقد دأب في كل مناسبة على نقد القوانين المستوردة، وفي مقال له عام ١٩١٦ عن غنضة القانون قال «إنى من الفريق الذى يعتقد بحق بأنه لا بد وأن يكون للقوانين الأهلية عصبية ترجع بها إلى تاريخ الأمة وتقاليدها وعوائدها وأخلاقها، بحيث تكون القوانين صورة لأخلاق الأمة وعوائدها، وقد جاءت المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٣ على غرار المحاكم المختلطة، وكان يتعين إنشاء المحاكم الأهلية على الطريقة المعروفة في الشريعة الإسلامية، كما كان يجب أن تعمل لها قوانين على غرار ما تقرر في الشريعة الإسلامية، وما درج عليه الأهلون فيها» ويقول «هذا الخطأ الذى وقع فيه نوبار في سنة ١٨٧٦ من إنشاء المحاكم المختلطة إلى سنة ١٨٧٥ ومن نقل القوانين الفرنسية من مدنية وتجارية ومرافعات وعقوبات وتحقيق جنائيات، لا بد من تصحيحه مهما طال الزمن، وتعاقبت الأحزاب، إن القانون المدني، فيما يتعلق بالمعاملات بين الأفراد كان هو قانون الشريعة الإسلامية، وكانت أحكامها المدنية هي السائدة بين الأفراد ... أما وقد خرج «نوبار» ومن تولى بعده عن ذلك الطريق السوى، طريق استبقاء أصول الشريعة الإسلامية، وطريق المحافظة عليها لتكون قانون الشعب المصرى، ومن يسكنه من غير المصريين، وأتى وأتوا بعده بقانون منقول عن القانون الفرنسى، غريب عن البلاد في عاداتها وفي طقوسها، وفي تقاليدها، فإنه أن أوان التفكير في علاج الأمر علاجًا صحيحًا مما مضى، وبعد العدة لمستقبل كله آمال، علاجًا يبعث إلى الوجود المصرى تلك الأصول الشرعية الإسلامية فيما يتصل بالمعاملات».

## شريعة التكليف الإلهي للبشر بأمانة الخلافة

جاء في القرآن ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، و﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَلْنَحْمِمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، و﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، و﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ أَمْثَالُكُمُوهُو عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، [الملك: ١، ٢]، و﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، و﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَسْتَأْذِنًا لِيُرَوْا أَعْمَلْتُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٣٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

يظهر من هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى خلق البشر على الأرض ليقوموا بمهمة عظيمة، الخلافة على الأرض، هذه هي الأمانة التي بيثتها الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

وحمل تلك الأمانة والحكم بالحق، هو عبادة الله التي جاءت في الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

ويظهر أيضاً من هذه الآيات أن حملنا تلك الأمانة هو اختبار من الله لعمَلنا على الأرض، والذي سوف يُجَازِننا عليه في الآخرة، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وذلك بموازين الحق، كما جاء في سورة الأنبياء ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [٤٧].

تكررت في القرآن عشرات المرات ثنائية ﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾،  
 بما يبين - بحسابات الآخرة - أن الإيمان وحده لا يكفي، والعمل  
 الصالح وحده لا يكفي، بل لا بد من الإيمان والعمل الصالح، لذلك  
 قالوا الإيمان قول يصدق العمل.

كذلك جاء في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ  
 وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾  
 [النحل: ٩٠]، وجاء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمْتَنَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ  
 بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]

الحكم بين الناس بالحق والعدل، وأداء الأمانات، وإحسان العمل،  
 هو ما نزلت الشريعة الإسلامية، والشرائع السماوية بصفة عامة، لبيان  
 أسسه للناس، ولذلك جاء في سورة المائدة، وهي من أواخر - إن لم  
 يكن آخر - سور القرآن في النزول:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ  
 هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا  
 تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَارْخَشُوا اللَّهَ وَارْخَشُوا يَتَابِقِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ  
 فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ  
 وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ  
 بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾ وَقَفَّيْنَا  
 عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهَاتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى  
 وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ

إِنجِيلٍ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾  
وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ  
قَاتِعَكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ  
شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا  
الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾ وَأِنْ أَعْجَبَتْكُمْ  
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرْتُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا  
فَعَلِمَ أَنَّهَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ  
يَعْبُدُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿ [المائدة: ٤٤ - ٥٠] .

تقول الآيات إن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون<sup>(٤٧)</sup>،  
وأولئك هم الظالمون، وأولئك هم الفاسقون، ثم تقرر أنه ليس هناك  
أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

وتأمر بأن يتبع اليهود والمسيحيون شرعهم وهم يعيشون في  
المجتمع أو الدولة الإسلامية، ولذلك قال البابا شنودة أكثر من مرة في  
مشكلة الزواج الثاني للمسيحيين: ارجعوا يا مسلمين للقرآن<sup>(٤٨)</sup>.

هناك آيات أخرى كثيرة تأمر المسلمين باتباع شرع الله، وأخرى  
بينت أحكامه، وفصلت السنة النبوية بعض تلك الأحكام.

(٤٧) قال مخلوف وابن كثير وغيرهما نقلاً عن ابن عباس: من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً فهو  
كافر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق.

(٤٨) منذ سنوات قليلة، قامت في أمريكا حملة على الشريعة الإسلامية، وفي عامنا الحالي  
أصدرت بعض الولايات قوانين تمنع من ممارسة الشريعة الإسلامية، ووصفت ولاية  
تيسي الإسلام بأنه مذهب قانوني - سياسي - عسكري - «Legal - Political  
Military Doctrine» فهو بهذا الوصف ليس ديناً!

## قضية تقنين الشريعة اليوم

يتخوف قليل من المسلمين من بناء المجتمع والدولة والحضارة على أساس مبادئ الشرع وأحكامه، رغم أن علماء السياسة والتاريخ والاجتماع والقانون - وغيرهم - فى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية يرددون دائماً أبداً أن مجتمعاتهم وحضارتهم قائمة على أسس يهودية مسيحية.

ورغم شهادة العديد من القانونيين العالميين للشريعة الإسلامية بالتكامل وجدارة الاتباع<sup>(٤٩)</sup>، ورغم أن المناداة باستعادة الاستقلال التشريعى لمصر بدأت منذ أكثر من قرن، وقال فقهاء القانون من أمثال السنهورى إن استقلال مصر لن يكتمل إلا باستقلالها التشريعى، رغم كل ذلك، رأينا د. علاء الأسوانى، وهو يحاصر مع يسرى فودة - أو حتى يتهمان - د. محمد مرسى بأن الإخوان يريدون أن تكون هناك لجنة أو جهة يرجع إليها مجلس الشعب لتوضح له إن كان مشروع قانون ما ينتهك الشريعة أم لا، وكان ذلك على شاشة OTV.

وتناسى البعض أن رئيس مجلس الشعب الأسبق، دكتور صوفى أبو طالب، شكل سبعة لجان لتنقية القانون مما يخالف الشريعة، وعملت تلك اللجان لبضع سنوات لإنجاز مهمتها، وكان أعضاؤها من مجلس الشعب ورجال القانون، ورجال القضاء، واستعانت بالأزهر ودار الإفتاء ووزارة الأوقاف فى عملها.

(٤٩) قال الفرنسى إدوارد لامبير مدير مدرسة الحقوق السلطانية فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر: لديكم قانون لا يوجد له نظير فى العالم، ومهمتكم الأساسية إظهار هذا القانون. وكان ذلك من أسباب طرد الإنجليز له من مصر - د. محمد كمال إمام.

وقرأنا فى جريدة الأهرام فى ١٩/٦/٢٠١١ على صفحة ٥ العنوان الآتى:  
«اتهامات حادة للإخوان فى المؤتمر الأول لجبهة أبناء مصر» وكتب  
حازم أبو دومة تحت هذا العنوان:

شن الإعلامى وائل الإبراشى هجوماً حاداً على الإخوان المسلمين،  
وقال إنهم يمهدون للقفز على السلطة من خلال مخطط طويل المدى  
لتغيير المجتمع وتحويله إلى دولة إسلامية تدريجياً.

ثم كرر الدكتور ضياء رشوان - على قناة O T V أيضاً - اتهام أحد  
مؤسسى حزب المصريين الأحرار للإخوان المسلمين بأنهم يريدون  
انتهاك قاعدة: لا دين فى السياسة، وطلب من الدكتور عصام العريان  
تأكيداً بأنهم لن يتهكوا تلك القاعدة.

وقبل ذلك، قال رشوان بوجوب محاسبة الإخوان على أى تصريحات  
لهم بهذا الخصوص.

يقول مؤيدو الشريعة:

من أين جاء تقديس هذه القاعدة؟ هل لدى المطالبين بها نص سماوى  
خصهم الله به؟ أم هناك تجربة علمية أكدت صحة هذه القاعدة فلا يجوز لأحد  
انتهاكها؟ وهل لا يدخل الدين فى سياسة إنجلترا - صاحبة وعد بلفور - ،  
وإسرائيل - الدولة اليهودية ذات الأحزاب الدينية ومبدأ الأرض الموعودة - ،  
وأمرىكا الشعب المختار الجديد - الذى يؤمن بوجوب قيام دولة إسرائيل حتى  
تنشب معركة هرمجدون - تطلعاً للمجىء الثانى للمسيح، وخلص المسيحيين؟  
أم أنها إحدى كليشيات البروباغندا التى يقصفنا بها الغرب ونردها وراءه  
وندخل بها فى جدل يفرقنا ويصرفنا عن صنع حاضرنا ومستقبلنا؟!.

قبل ذلك، اعترض بعض الإعلاميين وبعض الناشطين السياسيين على المستشار طارق البشري ووصفوه بأنه: إسلامي.

وانتشرت في الإعلام بعض المصطلحات التي تزدري من يُطالب ببناء المجتمع والدولة الإسلامية - رغم أن المادة الثانية من الدستور تنص على ذلك، ورغم أن دساتير مصر السابقة، بداية من دستور ١٩٢٣ بها نصوص مشابهة:

دستور ١٩٢٣: مادة ١٤٩: الإسلام دين الدولة.

دستور ١٩٣٠: مادة ١٣٨: الإسلام دين الدولة.

دستور ١٩٥٤: مادة ١٩٥: الإسلام دين الدولة.

دستور ١٩٥٦: مادة ٣: الإسلام دين الدولة.

دستور ١٩٧١: مادة ٢: الإسلام دين الدولة.

وتم تعديل المادة الثانية في عام ١٩٨٠ إلى: الإسلام دين الدولة، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع.

### **دساتير تنص على المسيحية**

هناك عدة دساتير تحدد ديانة الدولة بأنها مسيحية، وتحدد أي نوع من المسيحية كاثوليكية أو پروتستانتية، وإذا كانت پروتستانتية فأى طائفة منها: لوثرية، كالفينية أو غير ذلك، فعلى سبيل المثال الدنمارك والنرويج وأيسلندا: أنجيلية لوثرية - إنجلترا: الملك هو رأس كنيسة إنجلترا (ومنعت وثيقة الحقوق البريطانية الصادرة في ١٦٨٩ أن يتولى الملك أمير



باباوى، أى كاثوليكي، وسمحت للبروتستانت فقط من أفراد الشعب  
بحيازة الأسلحة) - الأرجنتين وكوستاريكا: الكاثوليكية الرومانية.

ونقطتف من كتاب كليفورد لونجلى: «الشعب المختار: الأسطورة التى  
شكلت إنجلترا وأمريكا» وصفه لترويج الملكة إليزابث الثانية - ملكة إنجلترا  
الحالية - فى كنيسة ويستمنستر... وبينما كان كبير أساقفة كانتربرى، الدكتور  
چيوفرى فيشر يتولى القداس، سأها بشكل رسمى: «هل ستحافظين بأقصى  
قوتك على قوانين الرب وعلى المغزى الحقيقى للإنجيل؟ وهل ستحافظين  
بكل قوتك على الديانة الإصلاحية البروتستانتية التى أرساها القانون فى  
المملكة المتحدة؟ هل ستحافظين بصورة ثابتة على استقرار كنيسة إنجلترا،  
والمذهب والعبادة والنظام، والحكومة بالتالى، كما أرساها القانون فى إنجلترا؟  
وهل ستبقى كل الحقوق والامتيازات لرجال الإكليروس والأساقفة فى  
إنجلترا كما يقضى القانون؟ وأجابت ويدها على الكتاب المقدس: «أعد بأن  
أفعل هذا كله» - صفحة ٤٢، ٤٣ من الجزء الأول.

نشرت بعض قوى الغرب المحبة للإسلام مصطلح «Islamist»  
على الإسلاميين السياسيين، وبالطبع لم تسك تلك القوى مصطلح  
«Christianist» ولا مصطلح «Judaist» على المسيحيين أو اليهود  
السياسيين، رغم أن الدين والكتاب المقدس من الأسباب الرئيسية لدعم  
الولايات المتحدة وأوروبا لإسرائيل<sup>(٥٠)</sup>، ولما أعلنت إسرائيل رسمياً أنها

(٥٠) نكتفى هنا بمقتطفات من خطاب جورج بوش للكنيست فى ١٥ مايو ٢٠٠٨:  
\* استقلال إسرائيل هو الوفاء بوعد قديم لإبراهيم وموسى وداود - أرض الشعب  
المختار - أرض إسرائيل.

دولة يهودية، لم نسمع أحدًا في الغرب - ولا حتى في مصر - يردد علينا مثل ذلك المصطلح بالنسخة اليهودية منه، بل عندما أكد ننتياهو على يهودية دولة إسرائيل في الكونغرس، هب رجال الكونغرس وقوفًا في عاصفة تصفيق مدوية للزعيم اليهودي، ولكنه ليس «Judaist»!.

وهنا في مصر، سك الدكتور رفعت السعيد مصطلح «المتأسلمون» على كل من يجروا على الجهر باتجاهاته الإسلامية ويرغبته في بناء الدولة والحضارة الإسلامية<sup>(٥١)</sup>.

---

\* تحالف حكوماتنا [أمريكا وإسرائيل] لا يمكن فكه، ومصدر صداقتنا أعمق من أي معاهدات، فهي متجذرة في الروحانيات المشتركة لشعبينا، إنها روابط الكتاب المقدس. عندما هبط ويليام برادفورد من سفينة ماى فلاور في ١٦٢٠، ردد كلمات إرميا: تعالوا لنعلن في صهيون كلمة الله. رأى مؤسس أمريكا أنها أرض موعودة جديدة، وأطلقوا على بلداتهم أسماء مثل بيت لحم، وأرض كتعان الجديدة. وفي الوقت المناسب أصبح الكثير من الأمريكيين مدافعين بحماس عن دولة يهودية جديدة.

يمكن لمن يريد الاستزادة قراءة الكتب الآتية: «المسيح اليهودي وتاريخ نهاية العالم» رضا هلال، «الصهيونية غير اليهودية» ريجينا رزق، «تاريخ نهاية العالم: كيف غير أكثر أسفار الكتاب المقدس إثارة للجدل حضارة الغرب» - والكتب كلها من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

(٥١) في كتابه «الليبرالية في مصر» رأى أن من يهاجم ويرفض الإسلام السياسي يكون ليبراليًا، حتى لو كان ذلك الليبرالي يؤيد احتلال بريطانيا مصر. انظر: شبلي شمیل الليبرالي يصف كرومر بأنه: مصلح مصر، ويدعو لاستمرار الاحتلال الإنجليزي لمصر - صفحة ٦٩، وانظر: ولي الدين يكن الليبرالي الذي يقول عن كرومر إنه حبيب الأحرار ومصلح مصر ورجلها العظيم، ويقول عن عرابي إنه أحد العاصين، ويدعو لبقاء الإنجليز في مصر - صفحة ١٥٢، ويرى أن سعد زغلول نصف ليبرالي، ربما لأنه انتقد كتاب «في الشعر الجاهل» لطف حسين، وكتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق - صفحة ٢٣٨، وبالطبع أشاد الدكتور المؤلف بسلامة موسى الذي جعل من التفريغ مادة أساسية في الليبرالية - صفحة ١٧٢.

غلاف الكتاب رسم لفتاتين على وجهيهما أحمر شفاء بصورة مبالغ فيها، وكذلك على أعلى صدر إحداهن العاري، وكان هذه هي الليبرالية المصرية في نظر الدكتور المؤلف.

بالطبع لسنا في حاجة لبيان أن تلك القوى في الغرب لا تريد الإسلام الذي يدخل الحياة العامة، إسلام الحقوق والعدالة والمساواة والعمل، والذي ينقص فيه إيمان المرء إذا بات شعبان وجاره جائع، وإذا لم يجب لأخيه ما يجب لنفسه، إسلام التوحيد الخالص الذي لا يقول بقدسية السوق ولا بأن أخلاقه وقوانينه هي مصدر التشريع، ولا بقدسية كليشيات أوروبا جندا مثل لا دين في السياسة، ولا بحق النيوليبرالية في التدخل الإنساني والاقتصادي في شئون الشعوب، كما فعلت الولايات المتحدة وبريطانيا وأتباعهما في العراق<sup>(٥٢)</sup>، ولا تريد تلك القوى إسلام أمة الإسلام التي تتعاطف وتكافل وتتآزر وتتحد - مثل الاتحاد الأوروبي ومثل الناتو - ولكن لتعمل لصالحها ولصالح البشرية.

### اعتراضات ومخاوف من تطبيق الشريعة

لكن على أي أساس يتخوف البعض هنا في مصر، ويرفض البعض الآخر تطبيق مبادئ الشرع ويرفض من ينادى بتطبيقها، أو كما يقولون عنهم: المتأسلمون، أو الـ «Islamists»، أو الإسلام السياسي؟. سأحاول هنا بإيجاز توضيح أهم وأكثر الاعتراضات شيوعاً وأجدرها بالبحث والمناقشة:

(٥٢) طبق بريمر الحاكم العسكري الأمريكي للعراق النيوليبرالية في العراق بتخصيص كل المشاريع العراقية العامة، وفتح الأبواب على مصراعها للشركات والبنوك الأجنبية مع حرمتها الكاملة في تحويل كل أرباحها خارج العراق، وإزالة كل ما يميح انسياب البضائع والخدمات والأموال وخاصة البترول، فحاز بهذا الحسينيين: التدخل الإنساني لفرض النيوليبرالية، ثم فرضها الفعلي على الشعب العراقي، المنكوب بالمصيتين.

## ١- فصل الدين عن السياسة

### لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين

لم تخل أى حكومة إسرائيلية منذ قيامها فى ١٩٤٨ من مشاركة الأحزاب الدينية، ولم نسمع أحدًا فى إسرائيل، أو أمريكا أو أوروبا يسك مصطلح «Jndaist» ولا يطالب بفصل الدين عن السياسة!

بل إن وزير الداخلية الحالى فى إسرائيل هو الحاخام إيلى يشاى رئيس حزب شاس، وهو ليس حزبًا دينيًا فقط، بل هو حزب دينى متطرف، ولو كان هذا الحزب إسلاميًا لأطلق عليه الغرب أنه حزب أصولى إرهابى.

وتعددت الأحزاب الدينية فى أوروبا، على سبيل المثال فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وغيرها. وكثير من هذه الأحزاب كاثوليكية، رغم العقبة بين الديمقراطية والكاثوليكية.

فالكاثوليكي مُلزم بطاعة البابا، الذى هو معصوم، والذى هو يحلل ويحرم، ويُدخل المسيحي الجنة أو يحرمه منها، والذى هو وكيل أو ممثل - أو حتى فى بعض الأحيان عندما تتضخم شخصيته وتسمح الظروف، هو تجسيد للمسيح على الأرض - وهذه العقبة هى التى جعلت لك يمنع التسامح مع الكاثوليك فى إنجلترا - لأن لهم رئيس خارج إنجلترا - وهى التى جعلت الأمريكين يثورون عندما فكر أحد

الكاثوليك في ترشيح نفسه للرئاسة في مطلع القرن العشرين<sup>(٥٣)</sup>، ولذلك لم يتول رئاسة أمريكا إلا كاثوليكي واحد - چون كنيدي، والذي تبرأ من طاعته السياسية للبابا قبل الترشح، والذي اغتيل - ضمن ٤٤ رئيسًا پروتستانتيًا.

وتذكر «موسوعة كمبريدج للتاريخ: الفكر السياسي في القرن العشرين» عن الأحزاب الدينية في أوروبا:

كان أول تدخل مباشر للكاثوليك في السياسة له أثر مهم كمؤشر للديمقراطية المسيحية ... وكان الشخصية المحورية أسقف ماينز الكاثوليكي «ويليام إيمانويل فون كتلر» ... لم يقف كتلر عند الجدل بأن المجتمع بما فيه الاقتصاد ينبغي أن يقوم على مبادئ الأخلاقيات الدينية والإحسان والتراحم، بل تطرق إلى الحديث عن المشكلات السياسية والمؤسسية، وحث الكاثوليك على تقبل المجتمع الحديث ومؤسساته الحكومية، كما كان يرى أن الدولة - بينما تحترم الحكم الذاتي للأفراد والمنظمات - لا بد أن تكون هي الضامن للسلام الاجتماعي القائم على الإيمان والوحدة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة.

كما شارك كتلر في صناعة حزب الوسط Zentrum.

---

(٥٣) اقرأ في «كيف نفهم الأصولية البروتستانتية والإيثانجليكية»: أشعلت حملة سميت جدلاً عنيفاً ضد الكاثوليكية في قلب البروتستانت المحافظين، وقالوا: غداً قد يكون لدينا سميت، وبعد غد سيكون لدينا البابا - صفحة ٧٩، والكتاب من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

جمع حزب الوسط بين الدفاع الصارم عن المبادئ الكاثوليكية والاستقلال السياسى عن روما.

ربما يكون هو [حزب الوسط] الداعم الأساسى للجمهورية؛ حيث شارك فى جميع تحالفات الحكومة، وحصل على رئاستها تسع مرات من أصل عشرين، فى قيامه بهذا الدور كان لا بد أن يدافع بالطبع عن مصالح الكنيسة الكاثوليكية.

تراوحت [قوته الانتخابية] ما بين حد أقصى ٧, ١٩٪ فى ١٩١٩، الى حد أدنى ٢, ١١٪ فى ١٩٣٣.

ثم تنتقل الموسوعة إلى فرنسا:

فى فرنسا، دعمت أزمة الثقافة الوضعية، والإحياء الروحانى، إلى جانب دعوة البابا ليو الثالث عشر لرفع شأن مؤسسات الجمهورية الثالثة، دعمت جميعها نمو الديمقراطية المسيحية.

كانت «سيلون» هى الجريدة الناطقة باسم الحركة التى أسسها مارك سانجنيه، وكانت أيديولوجيتها تقوم على فكرة الديمقراطية التى يشارك بها الجميع، والمستوحاة من المسيحية.. وفى عام ١٩٢٤، استطاع [سانجنيه] أن يكوّن الحزب الديمقراطى الشعبى، وكان لعمله أعظم الأثر فى الكاثوليكية السياسية الفرنسية التى أسهمت فى كل من حركة المقاومة وإقامة الحزب

المنادى بالديمقراطية المسيحية في فترة ما بعد الحرب،  
وهو الحركة الجمهورية الشعبية.

أما في إيطاليا، فذكرت الموسوعة القس لويجي ستروز الذي أسس  
الحزب الشعبى الإيطالى فى عام ١٩١٩:

بعد إنشائه بفترة وجيزة، حقق الحزب نجاحًا لا  
بأس به فى أول انتخابات تُقام فى إيطاليا بعد الحرب  
العالمية الأولى، وبحصوله على ٦, ٢٠٪ من الأصوات  
الانتخابية، أصبح هو الحزب الثانى فى إيطاليا بعد  
الحزب الاشتراكى.

وتحت عنوان:

«أوروبا»: «بعد ١٩٤٥: الديمقراطية المسيحية فى السلطة»

جاء فى الموسوعة ما يلى:

أثناء الحرب وبعدها، كان على الأحزاب الديمقراطية  
المسيحية أن تتكيف، ليس مع الكاثوليكية السلطوية  
والمحافظة التى عرفت بولائها للنظم الفاشية فحسب،  
وإنما مع المجموعات الكاثوليكية التقدمية الموالية  
للأفكار الماركسية كذلك؛ ولكن رغبتهم فى الحرب ضد  
الشيوعيين قربت بينهم وبين المحافظين، وفى تحالفاتهم  
مع هؤلاء كانوا فى بعض الأحيان يمثلون الثقل الأكبر.  
حدث ذلك للحزبين الديمقراطيين المسيحيين الكبيرين:

الديمقراطى المسيحى الإيطالى DC والديمقراطى المسيحى الألمانى CDU /CSU وكلاهما تقلد السلطة بعد الحرب، وأصبح الحزب الرئيسى فى النظام السياسى الذى قام فى النصف الثانى من القرن العشرين.

ووفقاً لصناديق الاقتراع، كان الحزب الديمقراطى المسيحى الإيطالى DC بغير منازع، هو أكبر الأحزاب الإيطالية منذ ١٩٤٦ حتى ١٩٩٢، حيث تراوحت نسبة التصويت له بين ٣٥٪ و ٣٨٪ لعقود طويلة، وبلغت أعلى نقطة سجلها ٤٨٪ (وهو عام الصدام الكبير مع الجبهة الشعبية)، وأكثر النقاط انخفاضاً ٢٩,٧٪ وهى التى سجلها فى ١٩٩٢، وهو العام الذى وقعت فيه الأزمة التى أدت إلى اختفائه بعد فترة انحدار بطيء فى الثمانينيات. كذلك كان الحزب الديمقراطى المسيحى الألمانى CDU /CSU هو أكبر الأحزاب فى ألمانيا باستثناء الأعوام ١٩٧٢، ١٩٨٨، ٢٠٠٠؛ وكانت النسب التى يحصل عليها فى الاقتراع تتراوح ما بين ٤٢٪ و ٤٨٪، ولكنه حصل على أغلبية ساحقة فى ١٩٥٧ عندما فاز بنسبة ٥٠,٢٪. وقد بقى الحزب الديمقراطى المسيحى الإيطالى DC فى الحكم من ١٩٤٥ إلى ١٩٩٣ دون انقطاع؛ فى حين بقى الحزب الديمقراطى المسيحى الألمانى CDU /CSU فى الحكم من ١٩٤٩ إلى ١٩٩٨



بفترة توقف استمرت ثلاثة عشر عامًا (١٩٦٩ - ١٩٨٢) عندما كان هناك ائتلاف ديمقراطى اجتماعى-ليبرالى فى السلطة؛ ودائمًا ما كان الحزبان يكونان حكومات ائتلافية عندما كانت لهما الأغلبية فى البرلمان.

أصبح الحزبان حزبين جماهيريين. وبدءًا من الستينيات فصاعدًا تساوت أعداد أعضاء الحزب الديمقراطى المسيحى الإيطالى مع أعداد أعضاء الحزب الشيوعى الإيطالى PCI بل وفاقتهما، حتى إن عددهم وصل إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ عضو. ورغم اختلاف الحزبين الألمانين فى منهجى نشاطهما فإن عدد أعضاء الحزب الديمقراطى المسيحى الألمانى CDU بلغ ٧٠٠,٠٠٠ عضو فى الثمانينيات كما بلغ عدد أعضاء الحزب الاجتماعى المسيحى الألمانى CSU ٢٠٠,٠٠٠ عضو. كان كلا الحزبين الديمقراطيين المسيحيين الإيطالى والألمانى هما السبب الرئيسى فى إعادة بناء بلديهما، فقد شجعا على إنعاش الاقتصاد وتقوية المؤسسات الديمقراطية وإعادة دولتيهما إلى نسيج المجتمع الدولى بعد المأساة القومية التى خلفتها النازية والفاشية.

ولا شك أن الفكر الديمقراطى المسيحى أسهم فى خلق نموذج معدل للتنمية بدلًا من القبول الكامل

بالنموذج الرأسمالى، وقد أسهم الحزبان الديمقراطيان المسيحيان فى ألمانيا فى توسيع دولة الرفاهة وتقويتها منذ الخمسينيات، بل إن دولة الرفاهة اتسعت فى إيطاليا لدرجة أن تحولت إلى نظام للصدقة له زبائنه؛ وقد استأنف الحزب الديمقراطى المسيحى ممارسة تدخل الدول فى الاقتصاد موسعاً ذلك فى مجال الصناعة، وهو ما بدأه النظام الفاشى. أما حزبا ألمانيا فقد كانا أكثر احتراماً لاستقلالية المؤسسات الصناعية الضخمة حتى وإن بقى الكثير من الشركات الكبرى تحت سيطرة الشعب. وقد قام الحزبان الديمقراطيان المسيحيان فى ألمانيا وإيطاليا بتحديد مصير دولتيهما فى مجال السياسة العالمية باختيارهما للغرب، والتحالف مع الولايات المتحدة، الذى تأكد من خلال حلف الأطلنطى، (الأمر الذى لقى الكثير من المعارضة من قبل اليسار فى كلتا الدولتين)، والخيار الأوروبى وعقد اتفاقية الفحم والفولاذ التى كانت النواة للاتحاد الأوروبى الحالى. وقد بقى الحزبان على ولائهما لكل خيارات مؤسسيهما.

عادة ما يوضع الفرنسى روبرت شومان Robert Schuman إلى جانب الإيطالى ألسيد دى جاسپرى Alicide De Gasperi والألمانى كونراد أديناور Konrad Adenauer كأحد مؤسسى الاتحاد

الأوروبي European Community. كان شومان  
عضوًا في حزب ديمقراطي مسيحي آخر في فترة ما بعد  
الحرب: هو حزب الحركة الجمهورية الشعبية MRP؛  
وعلى النقيض من الأحزاب الأخرى كان هذا الحزب،  
الذي هبطت نسب التصويت له هبوطًا حادًا من ٢٨٪  
في ١٩٤٦ إلى ١٠٪ في ١٩٥٦ قد راح دوره يتضاءل  
في الجمهورية الفرنسية الرابعة؛ حيث اختفى تمامًا  
باختفائها، أما أثناء الجمهورية الخامسة فإن الديمقراطيين  
المسيحيين كونوا أحزابًا صغيرة في إطار تحالف  
يمين الوسط بقيادة الديجوليين. وكان MRP هو أكثر  
الأحزاب التي بقيت على ولائها للمبادئ الديمقراطية  
المسيحية، وربما كان سبب ذلك في أن وضع نفسه في  
يسار الوسط على خارطة الأحزاب، وهو الموقف الذي  
جعله لا يجتذب دعم جميع الكاثوليك الفرنسيين<sup>(٥٤)</sup>

لم نسمع أحدًا في أوروبا أو أمريكا أو مصر، يطلق لقب  
«Chrystianist» على المسيحي الذي يعمل بالسياسة، أو ما يقابل  
لقب المتأسلم من ألقاب مثل المتأسيح أو المتمسح.

ولا يفوتنا هنا ذكر الدور الرئيسي الذي قام به بابا الفاتيكان  
السابق والكنايس الكاثوليكية في بولندا وألمانيا الشرقية ورومانيا في

---

(٥٤) صفحات ٢٣٣ إلى ٢٤٦ من المجلد الأول، والموسوعة من منشورات المركز القومي  
للتريجة بتاريخ ٢٠٠٩.

انهيار الاتحاد السوفيتي، ونقتبس من كتاب «سياسي الله - God's Politician» - من منشورات faber & faber - ما يلي:

البابا ليس الزعيم الروحي لتسعمائة مليون كاثوليكى فقط، ولكنه أيضًا رجل دولة على مستوى أهمية الرئيس جورباتشوف والرئيس بوش [الأب].

القائمان أصغر دولة مستقلة، ولكن لها نفوذ سياسى واسع فى المجال الدولى.

وكتب جورباتشوف عن البابا فى جريدة LaStampa الإيطالية التى تصدر فى ميلانو، بتاريخ مارس ١٩٩٢:

كل ما حدث فى أوروبا الشرقية فى السنوات الأخيرة، ما كان ليحدث بدون الدور السياسى للبابا على المسرح العالمى ... وسوف يستمر البابا چون پول فى ممارسة نفوذه السياسى المهم - مقدمة الكتاب xii , vii .

وقبل الانتقال إلى الولايات المتحدة فى أقصى الغرب، نصبوا نظارنا إلى أقصى الشرق: ماليزيا وإندونيسيا.

الأولى بها ثلاثة أعراق، والمسلمون حوالى ٦٠٪ من السكان أو أقل قليلاً، والثانية بها عشرات الأعراق، والمسلمون بها بين ٨٥٪ و ٩٠٪. الدولتان بهما أحزاب إسلامية، والدولتان تتمتعان بديمقراطية أعلى من معظم، إن لم يكن كل الدول العربية، وكذلك تتمتعان بمعدلات تنمية أعلى من مصر، ومن كثير من الدول العربية.

ولكن ما هي السياسة؟

جاء في كتاب «الدين والسياسة في الولايات المتحدة» لأستاذين في العلوم السياسية والدراسات الدينية في الولايات المتحدة<sup>(٥٥)</sup> ما يلي:

### تعريف السياسة

هناك تعريفات عديدة للسياسة... [منها] المهام المنوطة بها الحكومة وتأثير الحكومات على الشعوب، والطرق التي تعمل بها، والسلطة التي يلجأ إليها قادتها للحصول على السلطة والاحتفاظ بها. وهنا تعريف آخر يركز على استخدام السلطة، فعلى سبيل المثال عرّف روبرت دال السياسة على أنها «علاقات إنسانية تتطلب إلى حد كبير السيطرة أو النفوذ أو القوة أو السلطة».

هناك تعريف آخر يركز على تحديد القيم. فقد عرّف دافيد إيستون السياسة على أنها تحديد السلطة لقيم المجتمع<sup>(٥٦)</sup>. وهذا التعريف وما شابهه من تعريفات

---

(٥٥) «Politics And Religion in The United States» ميشيل كوربت، وچوليا كوربت، من منشورات جارلاند پابليشينج ١٩٩٩، ترجمته مكتبة الشروق الدولية، وطبعته ثلاث طبعات آخرها ٢٠٠٦.

(٥٦) ولذلك قال توني بلير: دخلت عالم السياسة لأطبق المبادئ المسيحية التي تربيت عليها.... القيم بدون سياسة لا وزن لها.

ويقول جون بيرتون راعي بلير وكاتب قصة حياته، في كتابه «We Dont Do God: Blaires Religion Belief And Its Consequences» من منشورات Continum، ٢٠٠٩: استفل بلير كل فرصة طوال مدة رئاسته ليشرح كيف تضافرت معتقداته الدينية مع معتقداته السياسية...»

يُعتبر أكثر التعريفات السياسية شيوعاً وقبولاً من جانب علماء السياسة - صفحة ١٣، ١٤ .

وقد بدأت مقدمة الكتاب المذكور بالفقرات الآتية:

استخدم الرئيس كليتون في خطابه الافتتاحي سنة ١٩٩٧ استعارة من التواراة حينما قال: «استرشاداً بالرؤية القديمة لأرض الميعاد، فلنوجه أبصارنا اليوم إلى أرض ميعاد جديدة». لقد اعتمد الرؤساء الأمريكيون بدءاً من جورج واشنطن فصاعداً على الحس الديني، وليس للتأثير على عقول أبناء الشعب فحسب، بل على أفئدتهم أيضاً لتأييد الأهداف الرئاسية.

فإن الدين والسياسة شكلاً نسيجاً متداخلاً عبر تاريخ الولايات المتحدة منذ الفترة الاستعمارية وحتى وقتنا الحاضر. لذا، فإن كتاب «الدين والسياسة في الولايات المتحدة» يقدم رؤية شاملة للطرق التي ساعدت على تفاعل كل من الدين والسياسة في الولايات المتحدة وسوف نتناول قصة هذا التفاعل المستمر في عدة أبواب.

---

= لم يكن هناك مطلقاً أي فصل بين سياساته ومسيحيته - XV، XX .

والكتاب تسجيل دقيق للمزج الكامل بين سياسة بليز ومسيحيته.

أما جورج بوش، فقد قال - لمن كان يدرس معهم الكتاب المقدس - قبل ترشحه للرئاسة «لقد استدعيت لكرسي الرئاسة - I have been called to the Higher Office»

تعد هذه المقدمة أساس العمل؛ حيث يتم تحديد شروط هذه العلاقة وتقديم وصف عملي لكل من الدين والسياسة، مع إيضاح سبب الارتباط الضروري بينهما في الولايات المتحدة. كما أنها تقدم دراسة نمطية مختصرة عن الاحتمالات المنطقية لهذه العلاقة.

ينقسم هذا الكتاب إلى أربعة أجزاء، ويتضمن كل منها عدة فصول .

يتعرض الجزء الأول (الدين والتاريخ) لطبيعة هذه العلاقة في الماضي. يتناول من خلال فصوله التجربة الاستعمارية، وأهداف المؤسسين الأوائل في الحقبة الزمنية من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٩٥٩، ومن عام ١٩٦٠ حتى الوقت الحاضر، ومما هو جدير بالذكر أن القضايا الخاصة قد تتغير بمرور الوقت، ولكن العلاقة بين الدين والسياسة تظل هي الوتيرة السائدة عبر التاريخ.

يتعرض الجزء الثاني (الدين والتعديل الأول) لتاريخ العلاقة القانونية بين السياسة والدين. ويتناول هذا الجزء من خلال فصوله البند الخاص بالكنيسة الرسمية. والبند الخاص بحرية الممارسة الدينية، والخلاف القائم بينهما.

يستعين الجزء الثالث (الدين والرأى العام) بمعلومات مستقاة من استطلاعات الرأى، لتوضيح مدى انعكاس

العلاقة بين الدين والسياسة على الرؤى السياسية والاجتماعية للأفراد في الوقت الحالى. يعقب الفصل الذى يتناول الدين والرأى العام فصول أخرى، يتم فيها تحليل الروابط بين الدين والسياسة من وجهة نظر الأمريكيين البيض والسود؛ حيث إن المجموعتين تختلفان اختلافاً كبيراً فى رؤيتهما لتلك الروابط.

يتكون الجزء الرابع (نتائج المؤثرات الدينية على السياسة) من فصلين، يتم فيهما استعراض دور هذه العلاقة وما انتهت إليه فى الوقت الحاضر؛ حيث إن الجماعات الدينية تحاول التأثير على السياسة العامة، كما يحاول الأفراد تصور الشكل الذى يجب أن تكون عليه هذه العلاقة.

والى جانب الموضوع الرئيسى للكتاب، وهو العلاقة بين الدين والسياسة، فهناك عدد من الأسئلة والقضايا التى يتم طرحها فى كثير من الفصول المذكورة آنفاً. بعض هذه الأسئلة والقضايا مذكورة فيما يلى:

\* تنظيم الحياة الشخصية.

\* شن الحرب وتفهمها أو تبرير أسبابها: لقد أثر الدين منذ الثورة الأمريكية وحتى حرب الخليج على رؤية الناس للحرب. وهذه الرؤية انقسمت إلى رؤية تعارض الحرب وأخرى تؤيدها.



\* العلاقة بين الجماعات: اعتاد الدين - على سبيل المثال - تشجيع كل من العبودية وإلغائها في الوقت نفسه، وبالمثل تشجيع الفصل العنصرى والاندماج فى آنٍ واحد.

\* غالبًا ما كان الدين فى الولايات المتحدة داعمًا بصفة عامة للحكومة. ولكن كثيرًا ما شكل الأفراد والجماعات تحديًا خطيرًا تجاه إجراءات معينة.

\* الدين والعملية الانتخابية: لعب الدين - إلى جانب عوامل أخرى - دورًا مؤثرًا فى سلوكيات الناخبين غير التاريخ. فعلى سبيل المثال، يتجه اليهود والكاثوليك لانتخاب المرشحين الديمقراطيين أكثر من الناخبين البروتستانت. وقد أثر الدين أيضًا على طريقة عرض المرشحين والمسئولين المنتخبين لقضاياهم على عامة الناخبين - صفحة ٨ - ١١.

### نعود لمصطلح فصل الدين عن السياسة

ربما يكون هذا المصطلح من أكثر المصطلحات تداولًا اليوم فى مصر. فما هو أصله؟ هل هو تنزيل سماوى يجب الانصياع له؟ أم هل هو فكرة بشرية؟ غربية أم شرقية؟ أم فكرة محرقة من أصلها إن كان لها أصل؟ وما هو سياقها وسياق تطورها؟.

## الدين فى السياسة الأمريكية ما لا يتناوله الإعلام المصرى ولا العربى

يجدر بنا قبل أى بحث ومناقشة أن نفيد القارئ هنا بما لا يتناوله الإعلام المصرى ولا العربى:

\* أطلقت نيوزويك على عام ١٩٧٦: عام الإيفانجليكى، بمناسبة ارتفاع مد اليمين المسيحى فى أمريكا، ووصول كارتر «المولود ثانياً- Born Again» إلى كرسى الرئاسة.

\* قال كارتر فى كتابه «Living Faith» الذى نشرته «Times Books» مرتين فى ١٩٩٦، ١٩٩٨، فى صفحة ١١٧: «Civil disobedience is in order when human laws are contrary to God's commands to us .... we are not required to submit to the domination of authority without assessing whether it is contrary to our faith or our beliefs»

وملخص ترجمة قول كارتر: العصيان المدنى مبرر إذا خالفت قوانين البشر قوانين الله ... ليس علينا الخضوع لسيطرة السلطات بدون تقييم ما إذا كانت مخالفة لإيماننا ومعتقداتنا.

أليس قول كارتر هو نفسه ما حاصر د. الأسوانى وفودة د. مرسى عليه باعتباره تهمة تستدعى إنكارها أو التوبة منها؟ والطريف فى أمر كارتر «الإيفانجليكى»، أنه برغم مقولته تلك التى شكلت سياسته،

يروى فى كتابه أن اثنين من ممثلى مؤتمر المعمدانين الجنوبيين زاراه فى مكتبه فى البيت الأبيض، وعند مغادرتهما مكتبه البيضاوى قال له الرجل وزوجته مودعين: «We are praying Mr President that you will abandon secular humanism as your religion»

نحن نصلى لك، السيد الرئيس، حتى تتخلى عن الإنسانية الزمنية كدين - صفحة ٣٥.

وقال كارتر أمام الكنيست الإسرائيلى فى مارس ١٩٧٩:

«جسد من سبق من الرؤساء الأمريكين الإيمان بأن جعلوا علاقات أمريكا مع إسرائيل أكثر من علاقات خاصة، إنها علاقات فريدة لأنها متأصلة فى ضمير الشعب الأمريكى، وفى أخلاقه وفى دينه وفى معتقداته... إننا نتقاسم معكم تراث التوراة» - كتاب «المسيح اليهودى ونهاية العالم» رضا هلال، صفحة ١١٧.

\* كان الرئيس رونالد ريجان - الذى انتخبه الشعب الأمريكى مرتين، مثل جورج بوش الابن - يرفع الكتاب المقدس فى يده قائلاً: فى هذا الكتاب حل مشاكل أمريكا.

وأقوال وأفعال ريجان التى امتزجت فيها معتقداته الدينية بسياسته سجلتها الكاتبة الراحلة جريس هالسيل، وترجمها محمد السماك فى عدة كتب أصدرتها دار الشروق منها: يد الله - النبوءة والسياسة. ويظهر فيها الرئيس الأمريكى مؤمناً إيماناً كاملاً بقرب نشوب معركة هر مجدون

التي جاءت في آخر أسفار الإنجيل، سفر رؤيا يوحنا - والتي تمثل حجر الأساس لدعم المسيحيين في أمريكا وأوروبا لإسرائيل - والتي أولها علماء الإنجيل - خاصة من اليمين المسيحي - بأنه واجب على كل مسيحي دعم إسرائيل حتى تنشب معركة هرمجدون التي يموت فيها ثلث البشر حتى يهبط<sup>(٥٧)</sup> المسيح بسلام ويحكم العالم بسلام. ونذكر القارئ بأن ريجان في استطلاعات رأى الشعب الأمريكى يحتل مرتبة متقدمة في قائمة أفضل رؤساء الولايات المتحدة.

\* دور بابا الفاتيكان السابق جون پول فى انهيار الشيوعية والاتحاد السوفيتى، والذي تحدثت عنه مختلف وسائل الإعلام، ونخص بالذكر الكتاب الذى نُشر عن دوره السياسى «سياسى الله - God's Politicain»، دايفد وايلى، من منشورات faber and faber، ١٩٩٢.

\* قول نتنياهو فى الولايات المتحدة فى أواخر القرن الماضى: نحن نسير على خطى آباءنا من اليمين المسيحي. وكان ذلك بعد أن قال له جيرى فالويل<sup>(٥٨)</sup>: لا تتخلى عن شبر واحد من أرض إسرائيل التوراتية.

والطريف فى أمر نتنياهو أنه ظهر مع لارى كينج فى برنامج المشهور، وحتى يكتسب عطف الجمهور الأمريكى، قال إنه يتدارس الكتاب المقدس كل يوم سبت مع ابنه، وأن ابنه أصبح عالمًا بالكتاب المقدس وحصد جائزة محلية وأخرى دولية.

---

(٥٧) بالطبع ذلك الثلث هو من العرب والمسلمين ومن يقف معهم ضد إسرائيل.  
(٥٨) جيرى فالويل أحد دعاة اليمين المسيحي والذي استمع له الملايين، والذي كانت له جامعة خاصة ووسائل إعلام ودعاية خاصة، وطائرة خاصة، فتأثيره فى أمريكا مثل تأثير الشعراوى والغزالي والقرضاوى وعمر عبد الرحمن مجتمعين، وربما أكثر.

\* حتى كليتون الذى لم يشتهر بالتقوى والاستقامة قال: قال لى كاهن كنيستى: الرب سيغفر لك كل شيء، إلا أن تتخلى عن إسرائيل.

\* أما جورج بوش الابن- الذى قال إن الله استدعاه لكرسى الرئاسة، قال فى شرم الشيخ إن الله قال له: يا جورج... اذهب وأطح بصدام حسين ففعلت... اذهب وحارب الإرهابيين فى أفغانستان ففعلت... وقال للرئيس الفرنسى شيراك: إنا ذاهبون للقضاء على يأجوج ومأجوج! - كتاب «لو كررت ذلك على مسمى فلن أصدقه!» للإعلامى الفرنسى الشهير چون كلود موريس، دار نشر بلون الفرنسية، فى ٢٠٠٩.

يستحق هذا الشعار: فصل الدين عن السياسة، الذى ترده يومياً عشرات المرات بعض القوى السياسية، والمنظمات غير الحكومية، ووسائل الإعلام، ويرفعه البعض إلى مرتبة مقدسة - مثلما قدس البعض حرية الأسواق وجعلها مصدرًا لكل القيم والأخلاق، حتى عد الرجوع عنها بمثابة الارتداد عن دين مقدس - أن نفرده بضع صفحات إضافية نستجلى بها كنهه أو كهنوته.

جاء فى موسوعة بريتانىكا:

## الكنيسة والذولة

العلاقة بين السلطة الدينية والسلطة «العلمانية»<sup>(٥٩)</sup> -

Secular فى المجتمع.

---

(٥٩) مصطلح علمانية هو الآخر من المصطلحات التى أسىء ترجمتها بشكل فادح، والترجمة الصحيحة لها «غير إكليريكي»، أو «غير كنسى»، أو «أرضى» فى مقابل «سماوى»، أو «لا دينى» فى مقابل «دينى»، أو «زمنى» فى مقابل «أبدى»، وأصلها باليونانية واللاتينية «لايكوس» - Laikos - Laicus، وسنختار هذه الترجمة الأخيرة فيما يلى من صفحات الكتيب.

لم تتضح معالم للفصل بين الأنظمة الدينية والسياسية في معظم الحضارات القديمة. ومع ظهور المسيحية بزغت فكرة الفصل بين النظام الديني والنظام السياسي بقول المسيح: إعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله<sup>(٦٠)</sup> - إنجيل مرقس ١٢: ١٧.

ومع هذا، استمر الترابط القوى بين الدين والسياسة، حتى بعد انتصار المسيحية، فمارس الإمبراطور قسطنطين السلطة على كل من الكنيسة والدولة<sup>(٦١)</sup>.

دعا الحكام «الزمنيون» أنهم يحكمون بنعمة الله، وبفضل الله «Grace of God»، ثم تصارع كل من الباباوات والأباطرة لحكم العالم كله<sup>(٦٢)</sup>.

---

(٦٠) طبقاً لما جاء في الإنجيل، أراد بعض اليهود إيقاع المسيح في خصومة مع الحاكم الروماني، فسألوه عن الجزية، فإذا قال لا تدفعوها اعتقلته السلطات الرومانية، وإذا قال ادفعوها، سقط في أعين اليهود الثوار على الرومان.

(٦١) الإمبراطور قسطنطين هو الذي أعلن المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، وكان ذلك بعد أن رأى حليماً - أثناء فترة قتاله ليصبح الإمبراطور - أنه سيستصر على أعدائه في الحرب إن قاتلهم تحت شعار المسيح. وقسطنطين هو الذي أمر بعقد مجمع نيقيا سنة ٣٢٥م ليضع فيه العقيدة المسيحية.

(٦٢) اعتمد الباباوات على نص في الإنجيل يقول فيه المسيح لبطرس: ...وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون قد رُبط في السماء، وما تحمله على الأرض، يكون قد حُل في السماء - متى ١٦: ١٩، فأولوا النص بأنهم يفتحون الجنة لمن يريدون، ويحرمونها على من يريدون، وأن لهم سلطة التحريم والتحليل، وأنهم معصومون، وزاد بعضهم فقال إنه تجسيد للمسيح على الأرض.

أثناء أزمة تقليد المناصب الكهنوتية<sup>(٦٣)</sup>، فصلت الكنيسة بين سلطتها وسلطة البابا أو الملك، برغم أنها وضعت الأساس لما يُسمى الملكية الباباوية<sup>(٦٤)</sup>.

قلص الإصلاح [البروتستانتية] كثيرًا من السلطة الباباوية، وتأرجح البندول لجانب الدولة، مع زعم كثير من الملوك بحقهم الإلهي «Divine Right» في حكم الكنيسة والدولة<sup>(٦٥)</sup>.

ظهر مفهوم الحكومة «الزمنية» كما صورته الولايات المتحدة وفرنسا، تحت تأثير مفكرى التنوير. واليوم في أوروبا الغربية، تحمى كل الحكومات حرية العبادة<sup>(٦٦)</sup> وتضع تمييزًا بين السلطة المدنية والسلطة الدينية.

---

(٦٣) من له الحق في تعيين المناصب الكهنوتية العليا: البابا، أم الإمبراطور أو الملك؟  
(٦٤) أى يكون البابا هو نفسه الملك أو الإمبراطور، وتلك لها أصل في الكتاب المقدس: ملكى صادق. ولذلك جاء باباوات تسمّوا بأسماء القياصرة والفاتحين، وكونوا جيوشًا وعملوا على توسيع حدود دولتهم. اقرأ ما كتبه ول ديورانت في قصة الحضارة عن البابا إسكندر السادس: ولما سئل أى اسم يريد؟ أجاب: اسم الإسكندر الذى لا يقهر! وعلق ديورانت قائلاً: وكانت هذه بداية وثنية لولاية دينية وثنية - جـ ٢٠ صفحة ٨٣، وانظر بعد ذلك: البابا المحارب يوليوس الثامن جـ ٢٠ صفحة ١٤٤ وما تلاها.  
(٦٥) عاشت تلك الفكرة في أوروبا حتى نهاية القرن التاسع عشر، في فرنسا وفي ألمانيا على سبيل المثال.

(٦٦) ما يجرى في أوروبا والولايات المتحدة مع المسلمين لا يتفق مع هذا الزعم، وقال الدكتور خالد أبو الفضل - أستاذ القانون في جامعة كاليفورنيا، وقد عمل مستشارًا دينيًا لـ جورج بوش سنوات قليلة استقال بعدها - إن هناك أكثر من عشر ولايات أمريكية شرعت حديثًا قوانين للتمييز ضد المسلمين، فيما يخص تطبيق الشريعة. ومن العجيب أن يتظاهر بعض الأمريكيين في نيويورك ضد إقامة مدرسة للثقافة العربية تحت اسم: جبران خليل جبران!.

ويقوم النظام القانوني في بعض الدول الإسلامية الحديثة على الشريعة. في الولايات المتحدة، يشهد مجال التعليم العام مواجهات خلافية على قضايا مثل : الصلاة في المدارس، التمويل العام، تدريس نظرية الخلق<sup>(٦٧)</sup> - صفحة ٤٠٤.

يمكننا أن نلخص ما قالته بريتانىكا بأنه حتى ظهور المسيحية، لم يكن هناك معالم للفصل بين الأنظمة الدينية والسياسية، ومع ظهور المسيحية بزغت فكرة الفصل على أساس آية في الإنجيل، ولكن لم يتم الفصل بناءً على آيات أخرى رأى فيها الباباوات وآباء الكنيسة، مثل أوجستين وغيره، أن السلطة الزمنية، أى السياسية، يجب أن تخضع للكنيسة. وطبقاً لبريتانىكا، نشب صراع بين الحكام «الزمينيين» أى الأباطرة والملوك، والباباوات على حكم العالم بسبب اختلاف في تأويل آيات الكتاب المقدس، حتى ظهر مفهوم الحكومة الزمنية كما صورته الولايات المتحدة وفرنسا في نهاية القرن الثامن عشر.

### فلنذهب للولايات المتحدة لنرى ماذا حدث هناك!

(٦٧) ربما تكون الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم التي سجت مدرساً (سكويس) لأنه دُرّس نظرية داروين، فحاكمته في ١٠ - ٢١ يولييه ١٩٢٥، في دايتون في ولاية تينيسى، وأدائه. وضغط اليمين المسيحي المستمر على المدارس جعل نسبة معتبرة منها تدرس نظريته في الخلق بالتوازي مع نظرية داروين، ونسبة أخرى تدرس نظريته فقط ولا تدرس نظرية داروين أو ما يقوله العلم.

وجاء في كتاب «أصول التطرف: اليمين المسيحي في أمريكا» تحرير كيمبرلى بلاكر من منشورات New Boston Books، ميتشيجان، في صفحة ١٢٣ من ترجمته العربية: في أحد استطلاعات «جالوب - Gallup» عام ١٩٩٧، ذكر ٦٨٪ من الأمريكيين أنهم يعتقدون بوجود تدريس قصة الخلق [التوراتية] إلى جانب نظرية التطور بالمدارس العامة.



## ٢ - فصل الكنيسة عن الدولة الدين والسياسة فى الولايات المتحدة

العنوان الأعلى «فصل الكنيسة عن الدولة - Separation of Church and State» هو الأصل الذى خرجت من عباءته مصطلحات وأفكار فصل الدين عن السياسة فى مصرنا الحديثة، رغم أن المصطلح والمفهوم يذكر الكنيسة وليس الدين.

وحتى نلم بطريقة صحيحة بهذا المفهوم، يجب أن نأخذ من وقت القارئ بضع دقائق، نعود فيها معه إلى إنجلترا القرن السادس عشر، أو إنجلترا الملك اللعوب هنرى الثامن.

تزوج هنرى الثامن من كاترين أرملة أخيه بنت ملكى إسبانيا فرديناند وإيزابيلا، حتى لا تعود بثروتها الكبيرة لإسبانيا. ولما لم تنجب له ذكراً ولياً للعرش و/ أو أحب هنرى آن بولين، أراد من البابا كليمنت السابع إلغاء زواجه السابق من كاترين، فلما رفض البابا، مضى هنرى فى طلاقه وزواجه الجديد، فحرمه البابا، فخرج هنرى الثامن من الكاثوليكية، واعتنق پروتستانتية مختلفة عما جاء به مارتن لوثر - الذى كان هنرى قد سبه فى كتاب يدافع فيه عن البابا ويصف لوثر بالهرطيق، وكافأه البابا على ذلك فلقبه: المدافع عن الإيمان - فكأن هنرى أراد أن يكون بابا البروتستانت الإنجليز، وهذا بالطبع يبين مدى فهم - أو إخلاص - الملك اللعوب لإصلاح مارتن لوثر، أو بالأحرى مدى جهل - أو عدم إخلاص - الملك للمذهب.

بدأ انتشار البروتستانتية في إنجلترا، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا لما قاساه الإنجليز وقاسته أوروبا كلها من فساد واستبداد الكنيسة الكاثوليكية<sup>(٦٨)</sup>.

ومع انتشار البروتستانتية وأفكارها، تبين لمن اعتنقها في إنجلترا بُعد كنيسة إنجلترا الجديدة، عن البروتستانتية.

ظهرت طوائف بروتستانتية عديدة، وظهرت البيوريتانية «التطهيرية - Puritanism» في أواخر القرن السادس عشر، التي حاولت تطهير كنيسة إنجلترا من بقايا الكاثوليكية؛ مما أدى لنشوب الحرب الأهلية في إنجلترا في القرن السابع عشر، وهجرة الكثير من البيوريتانز إلى أمريكا العالم الجديد، ليعبدوا الله بالطريقة الصحيحة التي يريدونها.

عاشت إنجلترا القرنين السادس عشر والسابع عشر في تعاقب ملوك كاثوليك، وپروتستانت، وأنصاف كاثوليك وپروتستانت، وكذلك تعاقب لاضطهاد الكاثوليك، والپروتستانت، وأنصاف الكاثوليك والپروتستانت الذين تبعوا كنيسة إنجلترا. وانتهى الأمر باستقرار كنيسة إنجلترا بشكلٍ

(٦٨) لم تظهر في تاريخ أوروبا مؤسسة سيطرت وهيمنت على حياة البشر بقدر ما فعلت الكنيسة. ابتزت أموال الناس، وصادرت حرياتهم وتدخلت في حياتهم - حتى معايشة الرجل لزوجته - وحتى قراءة الكتاب المقدس! وحرمتهم من متع الدنيا المباحة، وكانت لها محاكمها الخاصة في كل أوروبا، جيشت الجيوش وأشعلت المؤامرات والحروب، ومنها الحروب الصليبية داخل أوروبا وخارجها، ونصبت محاكم التفتيش، وساهمت = بالنصيب الأوفر في إحراق وقتل على الخوازيق عشرات الآلاف من النساء فيما هو معروف بمطاردة الساحرات، وبلغت بعض التقديرات مليون امرأة، وعاقبت العلماء، وكل ذلك في الوقت الذي عاش فيه الكثير من الباباوات عيشة الملوك والأباطرة الفاسدين الفاسقين والمبذرين - يمكن قراءة ذلك في قصة الحضارة الأجزاء: ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٢.

خاص من البروتستانتية، وتعرض الكاثوليك للاضطهاد حتى منتصف القرن التاسع عشر، إن لم يكن حتى نهايته، وحُرموا من المناصب العامة حتى صدور قانون ١٨٢٨ في إنجلترا الذي أباح لهم ذلك.

ونذكر القارئ بأن رسالة جون لوك - رائد رواد التنوير والليبرالية في عالم الغرب - في التسامح، رفضت أن يمتد ذلك التسامح ليشمل الكاثوليك، ناهيك عن اليهود والمسلمين.

كان هناك تمييز بين طوائف البروتستانت، ضد كل من لا تتطابق بروتستانتية مع كنيسة إنجلترا، وكان يعاقب على ذلك، فاختلف طريقة الصلاة أو أقوالها، أو التعميد أو ما إلى ذلك كان يُعرض المسيحي البروتستانتى للعقاب الذى قد يكون دفع غرامة أو السجن، إلى أن صدر «قانون التسامح - Tolerance Act» في ١٦٨٩، الذى سمح بالعبادة البروتستانتية دون الاضطرار لأن تكون متوافقة مع طقوس كنيسة إنجلترا، وسمى أولئك البروتستانت بالـ «Nonconformists» أى غير المتوافقين - واستثنى قانون التسامح المسيحيين الموحدين «Unitarians» فلم يشملهم التسامح - ولكن ذلك التسامح لم يسمح للبروتستانت غير المتوافقين بتولى المناصب العامة.

انتقل كل ذلك إلى:

أرض الوعد الجديدة: أمريكا

وعندما قامت الثورة الأمريكية (١٧٧٥ - ١٧٨٣) على ظلم الملك الإنجليزي وحكومته، كانت كنيسة إنجلترا هى المهيمنة - وبجوارها

كنيسة أخرى هي كنيسة «Congregation» هيمنت على ثلاث ولايات - فكانت تجمع كل منها الضرائب لمصلحتها، وتُعاقب الطوائف البروتستانتية الأخرى، وتُعاقب قسوسها إذا ضبطوا متلبسين بالوعظ بما لا يتفق مع وعظها وطقوسها، وتراوح ذلك العقاب بين الغرامة والحبس<sup>(٦٩)</sup>. وكان ذلك يتم بقوة وسطوة الحكومة الإنجليزية - وقوة وسطوة حكومات الولايات - رغم أن معظم بروتستانت أمريكا كانوا غير متوافقين مع كنيسة إنجلترا «Nonconformists»، وتحملوا ذلك القمع والظلم إلى أن قامت الثورة، فزالت سلطة الحكومة الإنجليزية وسطوتها، وزالت معها سلطة كنيسة إنجلترا وسطوتها.

ذكرنا من قبل أنه قد ظهرت قبل قيام الثورة واستقلال أمريكا عدة طوائف بروتستانتية، وعانت كل تلك الطوائف - عدا التابعة لكنيسة إنجلترا طبعًا، وتمتعت كنيسة «Congregation» بوضع مشابه لكنيسة إنجلترا في ثلاث ولايات - من تأييد الحكومة الإنجليزية لكنيستها التي تُسمى بالإنجليزية «Established Church»، أي الكنيسة التي أسستها الدولة وتساندها الدولة - ويُمكن أن نطلق عليها بالعربية

(٦٩) جاء في كتاب «الفصل بين الكنيسة والدولة - Separation of Church and State» لمؤلفه فوريسْت تشيرش من منشورات Beacon Press, Boston، ٢٠٠٤: كثيراً ما كان الوعاظ [غير المتوافقين] يُعتقلون في فيرجينيا بتهمة إزعاج الأمن. قال = الادعاء في قضية أسفرت عن حبس خمسة وعاظ معمدانيين: ... هؤلاء الرجال مصدر إزعاج كبير للأمن! ودافع باتريك هنري - الذي تخصص في الدفاع عن المساجين بسبب مخالفتهم لكنيسة إنجلترا - قائلاً: هؤلاء الرجال متهمون بأنهم يوعظون بإنجيل ابن الله! وجاء في صفحة ١٧: كان المعمدانويون يدفعون غرامات، يُجلدون بالسوط، ويُحبسون مرارًا وتكرارًا في ماسا تشوستس، بسبب مخالفتهم دينية.

«الكنيسة المؤسسة» - وتمنع مساندة بقية الكنائس، بل وتضطهدها.

طالبت الكنائس والطوائف البروتستانتية الأخرى من آباء الثورة، ومن معهم وحولم حمايتهم من هذا التمييز الديني، وإنهاء هذا الوضع، فإذا يفعل رجال الثورة، أو الآباء المؤسسون كما يُطلق عليهم في التاريخ الأمريكي؟.

هل يختارون طائفة أو كنيسة بروتستانتية أخرى يميزوها بوضع «الكنيسة المؤسسة - Established Church» على حساب الطوائف أو الكنائس البروتستانتية الأخرى؟ وعلى حساب كنيسة إنجلترا بالذات؟.

كان الوضع بعد نجاح الثورة والاستقلال مضطرباً ولا ينبىء بالنجاح ولا الاستقرار<sup>(٧٠)</sup>. فلم تكن إنجلترا راضية بذلك الاستقلال، وكانت فرنسا على الحدود الشمالية في كندا ذات أطماع استعمارية في نيوزيلاند، وإسبانيا تتربص في الجنوب والغرب، والسكان الأصليون - أو الهنود الحمر - على حدود الولايات من كل جانب، كل ذلك علاوة على أن هناك نسبة معتبرة من المهاجرين وقفت في صف إنجلترا، ونسبة معتبرة أخرى وقفت على الحياد في الحرب الثورية.

وبالطبع كانت كنيسة إنجلترا هي أولى الكنائس المستبعدة من وضع «الكنيسة المؤسسة»، فقد خاف الثوار أن تعمل لمصلحة التاج، وتعود بالحال لما كان عليه قبل الثورة.

(٧٠) لم يكن في ذهن الثوار إعلان الحرب على إنجلترا أو الاستقلال عنها، وكان كل طلبهم ألا تُفرض عليهم ضرائب بدون أن يشتركوا في البرلمان الإنجليزي، وتطورت المعارضة حتى أصبحت ثورة، ثم حرب ثورية، ثم استقلال.

جاء القرار بالأً تساند الحكومة الفيدرالية أى كنيسة أو أى طائفة  
بروتستانتية على حساب الكنائس والطوائف البروتستانتية الأخرى،  
حتى لا يزيد الانشقاق الدينى - بين كنائس وطوائف البروتستانت - من  
خطورة الوضع.

بعث إيزاك باكوس، أحد قادة الكنيسة المعمدانية<sup>(٧١)</sup>، رسالة إلى  
جيفرسون يطلب حماية الدولة للكنيسة من الاضطهاد والقمع، وأنه  
قد أتهم بأنه خائن - رغم تأييده للثورة على الإنجليز - لأنه غير متوافق  
«Non conformist» مع كنيسة إنجلترا.

فى هذا السياق صدر التعديل الدستورى، والذى تُسمى مواده  
العشر الأولى وثيقة الحقوق، بمنع تأسيس دين، والمقصود به منع أن  
تدعم الدولة كنيسة بروتستانتية على حساب الكنائس الأخرى، ثم كتب  
توماس جيفرسون كلمته المشهورة: الفصل بين الكنيسة والدولة.

وهذا المصطلح أو المفهوم «الفصل بين الكنيسة والدولة» هدفه  
الرئيسى منع قمع الدولة للطوائف والكنائس البروتستانتية المتعددة فى  
أمريكا، ومنع تأييد وتمييز إحدى الطوائف والكنائس على الأخرى، فهو  
حماية للطوائف والكنائس البروتستانتية من الدولة.

ولكن من هو توماس جيفرسون الذى وضع التعديل الأول للدستور  
وجاء منه ذلك المفهوم والمصطلح الشهير؟.

(٧١) صارت الكنيسة المعمدانية من أكبر طوائف البروتستانت فى الولايات المتحدة الآن، ومن أعمدة  
اليمن المسيحى، وهو الآن قوة كبيرة مؤثرة بشدة فى سياسة الولايات المتحدة داخلياً وخارجياً.

وُلد جيفرسون في ١٣ أبريل ١٧٤٣ في فيرجينيا، كانت له مزارع، وأصبح محامياً، وعضواً في برلمان فيرجينيا قبل الثورة.

أصبح حاكماً لفيرجينا قبيل الثورة. شارك بكتاباته عن حقوق الأمريكيين البريطانيين في تنوير الرأي العام الأمريكي، وشارك في المؤتمرات السياسية التي أسفرت عن المطالبة بالاستقلال، مما أدى في النهاية للثورة وحرب الاستقلال عن بريطانيا، وصاغ وثيقة الاستقلال.

بعثه جورج واشنطن - أول رئيس لأمريكا - سفيراً في باريس في ١٧٨٥، ثم عينه أول وزير للخارجية (١٧٩٠ - ١٧٩٣)، ثم أصبح نائباً لـجون آدمز - الرئيس الثاني لأمريكا (١٧٩٧ - ١٨٠١) - وخلفه رئيساً لأمريكا دورتين (١٨٠١ - ١٨٠٩). تمتع جيفرسون بتعليم وثقافة عالية، ورؤية واسعة متنورة.

كان جيفرسون ربوياً، مثله مثل ماديسون وفرانكلين وتوماس بين، وربما كان واشنطن أيضاً ربوياً.

### فما هي الربوية «Deism»؟

ظهرت الربوية كرد فعل لأفكار التنوير الأوروبي وانتشرت من إنجلترا في مطلع القرن السابع عشر، (كرفض للمسيحية التقليدية) طبقاً لما جاء في بريتانكا، بينما جاء في «الدين والسياسة في الولايات المتحدة»: «أكدت العقلانية الدينية بشكل قوى على استخدام العقل في الدين والأمور الأخرى على السواء. ومن أجل استخدام العقل

فى الدين، يجب تبسيط المذاهب الدينية ونبذ نظريات اللاهوت غير الضرورية». والمقصود تجسيد الإله، والتثليث، والخطيئة الأصلية، وتحول الخبز والنبذ إلى جسد المسيح ودمه عند تناول القربان، ومثل هذا. وجاء فى «الدين والسياسة فى الولايات المتحدة»:

كان جيفرسون مسيحيًا أيضًا ولكن ليس بالمعنى التقليدى. لقد كان مسيحيًا بإيمانه القوي بتعاليم المسيح الأخلاقية. فقد نسب إلى المسيح كل الفضائل الإنسانية، ورفض ألوهيته، كذلك رفض معظم الأرثوذكسية التقليدية للمسيحية. وآمن جيفرسون بوجود حكمة عظيمة فى تعاليم المسيح، إلا أن هذه الحكمة قد حرفها آخرون مثل رجال الدين والمؤسسات الدينية المنظمة لأسباب أنانية. وأراد جيفرسون فك طلاسم وتبسيط تعاليم المسيح. ونادى بوجوب قراءة الناس الإنجيل بنفس طريقة قراءتهم أى كتاب آخر، وأن عليهم استخلاص جواهر الحكمة منه ونبذ الأجزاء الخطأ. ولهذا فقد غربل وانتقى من الأناجيل العادية (مستخدمًا النسخ اليونانية واللاتينية والفرنسية والإنجليزية) إنجيله الخاص (إنجيل جيفرسون) وكان بعنوان «حياة وأخلاق المسيح». وقد نبذ الكم الأكبر من الإنجيل، وتخير جزءًا صغيرًا من الأناجيل الأربعة وهو الذى شعر أنه صحيح ونافع.



وحتى يتضح أكثر المجال الفكري الذي عاش فيه جيفرسون، نذكر في الهامش أسفل الصفحة من نفس الكتاب ما جاء عن معاصره بنيامين فرانكلين، وچون آدامز<sup>(٧٢)</sup>.

(٧٢) بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ - ١٧٩٠)

أفضل وصف لبنيامين فرانكلين السياسي والكاتب والمخترع في إطار هذه الدراسة أنه ريبوي مسيحي، يشعر أن الدين وأن كل الأديان عموماً والمسيحية بصفة خاصة، تحقق نفعاً للمجتمع. ومعتقداته الأساسية موجودة في سيرته الذاتية وفي رسالة كتبها في ٩ مارس ١٧٩٠ قبيل وفاته إلى عزرا إستايلز رئيس جامعة يال. أعرب فرانكلين = في رسالته هذه عما يعتبره المبادئ الأساسية للدين القويم قائلاً: «أنا أؤمن بإله واحد خالق الكون الذي يتولاه بعنايته الإلهية، وهو وحده المستحق للعبادة، وأن أفضل ما تقدمه له هو تقديم الخير لعباده الآخرين. كما أؤمن أن روح الإنسان خالدة وسوف تعامل بعدل في الحياة الأخرى حسب سلوكها في الحياة الدنيا». وعبر فرانكلين في هذا الخطاب عن إيمانه بأن نظام الأخلاقيات والدين الذي تركه المسيح هو الأفضل في العالم، إلا أن البعض تسبوا في إفساده. وتشكك فرانكلين في ألوهية المسيح. ووفقاً لوجهة نظره، الدين يساعد في دعم المجتمع الأخلاقي.

چون آدامز (١٧٣٥ - ١٨٢٦)

مثل جيفرسون، يمكن وصف جون آدامز ثاني رؤساء الولايات المتحدة كريبوي مسيحي، آمن بتعاليم المسيح الأخلاقية ولم يؤمن بألوهيته. وفي ماساتشوستس كان آدامز أحد الليبراليين الدينيين ممن انفصلوا عن الأبرشيين التقليديين ليصبحوا موحدين.

كان آدامز ناقداً لاذعاً لما رآه بمثابة انحراف المسيحية من خلال الدين المؤسساتي ويسبب النزاعات اللاهوتية المستديمة. وفي رسالة موجهة إلى ف.أ. ديركمب بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٨١٦، أشار آدامز إلى أن هذا الانحراف جعل من الديانتين اليهودية والمسيحية أكثر الديانات دموية على الإطلاق، وأضاف أن العديد من الإنجازات الثقافية قد أسء استخدامها لخدمة أغراض ممقوتة من الدجل والخرافات.

وآمن آدامز بحرية الدين، وعمل من أجلها. فلم يؤمن بأحقية أي جماعة في فرض مذهبها الدينية على الآخرين، ويجب أن يترك العقل البشري حراً من المعتقدات الجازمة.

ربما نكون الآن على علم أفضل بالسياق الذي ظهر فيه المفهوم والمصطلح (فصل الكنيسة عن الدولة)<sup>(٧٣)</sup>، أى عدم تمييز الدولة لكنيسة أو طائفة پروتستانتية على الكنائس أو الطوائف البروتستانتية الأخرى، وهو مماثل لدعوة جون لوك لتسامح الكنائس البروتستانتية مع بعضها البعض، دون أن يمتد ذلك التسامح للكاثوليك، ولا لليهود ولا للمسلمين.

### ٣- تنحية الدين عن السياسة والحياة العامة هو سبب تقدم الغرب

هذا أحد كليشيهات البروباغندا التي قصفتنا بها بعض دوائر الغرب المحبة للإسلام.

دائما أبداً يفتن الناس بالثرى القوى، على مستوى الأفراد والجماعات والدول، وخاصة إذا استطاع هذا الوجيه - الثرى القوى ذو النفوذ - أن يظهر بمظهر المحسن الكريم، وهنا يقوم الإعلام ومزيفو التاريخ بدورٍ جوهرى.

ولا أستطيع هنا مقاومة ذكر إحساسى بحسن نية منى الشاذلى اللانهائى، حينما استضافت منذ بضعة أشهر السفير البريطانى فى مصر، والذي بدأ يتكلم وكأنه الحكيم والمحسن المثالى، الذى

---

(٧٣) ومع كل ما سبق ذكره، قال كبير قضاة المحكمة العليا فى الولايات المتحدة ويليام رنكويست فى ١٩٨٥: «الحائظ الفاصل بين الكنيسة والدولة» استعارة مبنية على تاريخ سعى، وأثبتت فشلها كمرشد فى القضاء، فيجب التخلي عنها بصراحة وبشكل واضح - أصول التطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا - صفحة ٢٥٣.

يتفضل علينا بالنصح والإرشاد، ويسبغ علينا كرمه وفضله فى كيف نحل المشكلة الفلسطينية... ذلك الوجه الأمل - كما أراد أن يظهر - هو ممثل المجرم الرئيسى والمتهم الأول فى ارتكاب مآسٍ أصابت الشرق الأوسط فى القرون القليلة الماضية، ومنها مأساة فلسطين<sup>(٧٤)</sup>، كذلك جسدت حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا وروسيا الإجرام الدولى فى إطلاق «استباحة الآخر» طوال تلك القرون القليلة الماضية، فاستنزفوا ثروات الشعوب، واستحلوا جهودها ودماءها، وأرواحها، فأبادوها إذا لزم الأمر، كما حدث فى أمريكا وأفريقيا وآسيا<sup>(٧٥)</sup>.

(٧٤) نذكر القارئ باحتلال بريطانيا لمصر منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر حتى خمسينيات القرن العشرين، ثم ارتكابها مع فرنسا وإسرائيل العدوان الثلاثى الغادر على مصر فى ١٩٥٦، ثم مؤامرتها لتحويل ماء النيل عن مصر، وعدم ارتكابها تلك الجريمة يعود لسبب وحيد - كما ذكرت الوثيقة التى نشرت جريدة الأهرام جزءاً منها فى ٢/١٢/٢٠٠٦ - هو خوفها من الفشل، الأمر الذى كان سيؤدى لارتفاع شعبية عبد الناصر. ونذكر القارئ أيضاً بأن بريطانيا العظمى اعتقلت أحد أبطال المقاومة فى بورسعيد وخطفته = إلى قبرص، وهددته بأن تفتق عينيه إذا لم يقل ما تريد فى الإذاعة، فرفض محمد مهران، فأوفت بريطانيا العظمى بوعداها وفتت عيني البطل المصرى، وهو ما زال حياً يرزق فى بورسعيد مدينة الأبطال.

وما زالت الأنعام التى زرعتها بريطانيا وألمانيا فى الحرب العالمية الثانية تعوق التنمية فى شمال الصحراء الغربية، وتصيب وتقتل المواطنين المصريين، ثم يتحدث الوجه الأمل عن مساعدات بريطانيا لمصر ولفلسطين.

(٧٥) يكفى من الأمثلة هنا ما فعلته بريطانيا فى مصر والهند والصين، وما فعلته فرنسا فى الجزائر. وتم ذلك التوسع الاستعمارى تحت مزاعم وشعارات متعددة منها: حماية الأقليات - ضبط الميزانية - الحماية - حمل الرجل الأبيض - «السيهات الثلاثة» - Cees 3: «نشر المسيحية - نشر الثقافة والحضارة المسيحية - التجارة - Culture - Commerce - Christianity»

وهذا هو أحد الأسباب الرئيسية فى هيمنة تلك القوى على العالم، والسبب الرئيسى الثانى - بعد استحلال الآخر - هو تفوقها فى تكنولوجيا السلاح والحرب<sup>(٧٦)</sup>.

أما قضية تقدم الغرب، ففيها نظر. الغرب أكثر قوة وأكثر ثراءً، وأكبر اقتصاداً، وأعلى صوتاً وإعلاماً.... ولكن ليست هذه هى المعايير الوحيدة للتقدم... لكنها بكل تأكيد معايير الهيمنة والتسلط.

فعلى سبيل المثال، الولايات المتحدة: يعيش حوالى خمس سكانها تحت خط الفقر، وحوالى نصف السكان بدون تأمين للعلاج، الذى يكلف مبالغ فوق طاقة الأمريكى من الطبقة المتوسطة، وتستهلك

(٧٦) لمن يريد الاستزادة، أشرح الكتب الآتية للقراءة:

- \* الجذور الشرقية فى الحضارة الغربية. جون إم. هوبسون، من إصدارات مكتبة الشروق الدولية.
- \* الشركة التى غيرت العالم. نك رويترز، من إصدارات مكتبة الشروق الدولية.
- \* ركل السلم بعيداً. د. ها - جون تشانج، من إصدارات مكتبة الشروق الدولية.
- \* الكتاب المقدس والاستعمار. القس مايكل بيريور، من إصدارات مكتبة الشروق الدولية.
- \* ٥٠٠ عام وما زال الغزو مستمراً - ناعوم تشومسكى، دار المدى.
- \* The Military Revolution 1500 - 1800, Parker - Cambridge, 1988 - 1989 - 1996 - 2005.
- \* The Pirate Queen, Susan Ronald - Harper Perennial, Harper Collins - 2007.
- \* Capitalism & Slavery, Eric Williams - The University of North Carolina Press, 1941, 1994.
- \* The Blood Never Dried, Newsinger - Book Marks Publications, 2006.
- \* The Tools of Empire: Technology and European Imperialism in the Nineteenth Century, Daniel R. Headrick - Oxford University Press, 1981.

نصف مخدرات العالم، وبها أعلى نسبة جريمة، وأعلى نسبة مساجين  
لعدد السكان في العالم، وتعانى أكبر فجوة في الدخول بين الدول  
الصناعية، فقد جنت شريحة الـ ١٪ الأغنى ربع الدخل في عام ٢٠١٠،  
وكدست ٤٠٪ من الثروة!، وفوق كل ذلك يحمل مواطنها أعلى  
مديونية في العالم، وهى «على شفا انهيار اقتصادى وانهيار مالى لولا  
قوتها العسكرية، ولولا أن العالم يستخدم الدولار كعملته الدولية»،  
والفقرة الأخيرة هى من تصريح حديث لجيمس بيكر وزير خارجيتها  
الأسبق الذى نشرته جريدة الأهرام فى ٣٠ / ٤ / ٢٠١١.

وليس هناك من أسأل دماء، وارتكب قمعًا وظلمًا فى العالم مثل  
إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا والولايات المتحدة، وتحاول إسرائيل  
للحاق بهم، لولا عمرها القصير، فهل هذه هى معايير التقدم؟.

بعد كل ذلك، من قال إن الولايات المتحدة وإسرائيل، أو حتى إنجلترا  
أخرجت الدين من سياستها وحياتها؟. كما ذكرنا سابقًا، منذ حوالى  
قرن يردد المفكرون والكتاب فى الولايات المتحدة مقولة: حضارتنا  
وثقافتنا قائمة على أسس يهودية مسيحية، بقدر ما تردد بعض وسائل  
الإعلام وبعض السياسيين والمفكرين فى مصر اليوم القول بأنه لا دين  
فى السياسة ولا سياسة فى الدين، أو المطالبة بالدولة المدنية<sup>(٧٧)</sup>.

(٧٧) لا يوجد فى مصطلحات علم السياسة الغربى مثل هذا المصطلح، وقصد مرديه  
فى مصر هو فصل الإسلام عن الحياة وعن الدولة، رغم أنه فى عالم الغرب، وخاصة  
الولايات المتحدة، حيث يستقون ويستلهمون الأفكار، يتردد بكثرة مصطلح الدين  
المدنى للولايات المتحدة، والمؤسسة الدينية المدنية.

لقد اعتبر البيوريتانز، وبصفة عامة الواسپ، المهاجرون إلى أمريكا أنهم شعب الله المختار يخرجون إلى إسرائيل الجديدة، فأمريكا هي الأرض الموعودة، وقال جون أوسوليفان: قُدر لنا [أمريكا] أن نين للجنس البشرى عظمة المبادئ السماوية، وأن نؤسس على الأرض أنبل معبد لتسييح وعبادة الأعلى والأقدس - أعتقد أننا سنكون خونة لرسالتنا النبيلة إذا رفضنا الأهداف العليا للعناية الإلهية [يقصد التوسع] - أليست لنا رسالة لتزديدها؟ وهل منحنا الأب القدير هبات وميزنا باعتبارنا شعبه المختار لنبلى ونعفن فى أنانيتنا؟<sup>(٧٨)</sup> [يقصد إذا رفض الأمريكيون الدعوة للتوسع].

شاعت بين الأمريكيين - قديمًا وحديثًا - أن أمريكا مكلفة بمهمة إلهية، برسالة للبشرية، وأنها آخر أفضل أمل للعالم<sup>(٧٩)</sup>.

ويمكن لكل قارئ أن يتذكر سياسة أوروبا الغربية والولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، وكيفية اجتماعهم على تأييد إسرائيل، رغم كل جرائمها وانتهاكاتها لقرارات الأمم المتحدة وحقوق الإنسان<sup>(٨٠)</sup>.

(٧٨) أرض الميعاد والدولة الصليبية، مكدوجال، دار الشروق صفحة ١٢٠، ١٤٢، ١٥١. (٧٩) فى مقالة فى المجلة الأمريكية المشهورة «Foreign Affairs» فى عدد يناير ٢٠٠٧، قال والتر راسيل ميد: للدين أثر قوى على السياسة والسياسين وعلى الهوية والثقافة الأمريكية، ويعمل الدين على تحديد شخصية الدولة، ويساهم فى تكوين أفكار أمريكا عن العالم، ويفسر إحساس الأمريكيين بأنفسهم كشعب مختار - ترجم حمدى عباس المقالة، ونشرتها مكتبة الشروق الدولية بعنوان: بلد الله: الدين فى السياسة الخارجية الأمريكية. ويمكن الاستزادة فى معرفة كيف يعتبر الأنجلوساكسون أنفسهم شعب الله المختار بقراءة الكتب الآتية: أرض الميعاد والدولة الصليبية، مكدوجال من منشورات دار الشروق، المسيح اليهودى ونهاية العالم، رضا هلال، الشروق الدولية، الشعب المختار: الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا، كليفورد لونجلى، الشروق الدولية.

(٨٠) قبيل صدور هذا الكتاب، جاء فى أهرام ٣ سبتمبر ٢٠١١ مبشرات تقرير الأمم المتحدة عن الهجوم الإرهابى للقوات الإسرائيلية على السفينة التركية التى تنقل طعام =

بعد كل ما سبق نذكر القارئ بأن موجة تهميش الدين من الحياة العامة في أوروبا - بسبب ممارسات الكنيسة وغموض عقيدتها في التثليث، وتجسيد الله وصلبه، وأكل المصلين جسد المسيح وشربهم دمه، وغير ذلك - لم تبدأ إلا في منتصف القرن العشرين، وبعد الحربين العالميتين - وهما في الأصل حربين أوروبيتين أو مسيحييتين، جرجرت أوروبا بقية العالم فيهما - حين فقدت أوروبا القناعة بقيمها، وكانت أوروبا الغربية قد بسطت هيمنتها على معظم العالم قبل ذلك بحوالى قرن.

ونذكر القارئ بأنه بعدما نشبت ثورات أوروبا (فرنسا، والنمسا، وما أصبح ألمانيا وما أصبح إيطاليا، وغيرها) في مطلع عام ١٨٤٨ ضد التحالف القديم بين الكنيسة والملوك، استطاعت القوى المحافظة استعادة هيمنتها في خريف العام نفسه، واستمرت الأنظمة القديمة حتى نهاية القرن التاسع عشر. وفي فرنسا التي كانت تُسمى بنت الكنيسة حتى قيام ثورتها في عام ١٧٨٩، جاء الإمبراطور نابليون الثالث في عام ١٨٥٢ ليعلن: نريد أن نحول الشعب إلى ميدان الفضيلة والدين والرخاء - تاريخ القرن التاسع عشر، قاسم وحسنى، صفحة ١٥٣، الطبعة السابعة ١٩٣١، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة<sup>(٨١)</sup>.

---

=وأدوية لفزة المحتلة والمحاصرة: إن القوات الإسرائيلية التي اعتلت [هاجت!] السفينة واجهت مقاومة ثم تطلب الأمر استخدام القوة من أجل حماية نفسها!.

(٨١) بل إنه بعد الثورة الفرنسية بخمسة عشر عامًا، في عام ١٨٠٤ توج البابا نابليون على مثال تتويج البابا شارلمان على الإمبراطورية الرومانية المقدسة قبل ذلك بعشرة قرون، ولم يمنع ذلك نشوب صراع لاحق على أراضي إيطاليا بين نابليون والبابا في ١٨٠٨، فحرم البابا نابليون، فما كان منه إلا أن قبض عليه بالقوة العسكرية وسجنه؛ مما أفقد نابليون تعاطف الكاثوليك في أوروبا.

أما الولايات المتحدة، فيراها الدارسون، ومنهم ريتشارد هاس  
مستول التخطيط بالخارجية الأمريكية: أكثر دول العالم تديناً<sup>(٨٢)</sup>.

#### ٤- كيف نحافظ على حقوق المسيحيين؟

طبقاً للتصريحات الأمريكية والأوروبية المعلنة، صار هناك ملف  
للمسيحيين والتمييز الديني في مصر لدى تلك الحكومات التي لم  
تتوقف شعوبها عن ممارسة التمييز الديني والعنصرى - بامتياز - منذ  
نشأتها وحتى اليوم.

كذلك دعا بابا الفاتيكان لحماية المسيحيين في مصر، ونذكر القارئ  
بأن الحروب الصليبية في القرن الحادى عشر قد بدأت بدعوة بابا  
الفاتيكان لحماية الحجاج المسيحيين من الأتراك في بيت المقدس.

وطبقاً للتصريحات الإسرائيلية، والدراسات والكتب الإسرائيلية،  
والمنشورة باللغة العبرية والإنجليزية، يجب تفتيت وتقسيم العالم  
العربى حتى تحكم إسرائيل من جبل صهيون.

ستعمل تلك القوى على «تسمين»، و«تسخين» ذلك الملف بكل  
الوسائل والأساليب.

وقد رأينا ونرى تقسيم السودان<sup>(٨٣)</sup>، وقبل ذلك ما حل بالعراق،  
ومحاولة إنشاء دولة كردية.

---

(٨٢) قال ذلك على شاشة التلفزيون الحكومى المصرى بتاريخ ٢ / ٣ / ٢٠٠٣ مع الدكتور  
عبد المنعم سعيد.

(٨٣) من يرغب الاطلاع على دور إسرائيل في جنوب السودان، وفي أفريقيا، يمكنه الاطلاع  
على: إسرائيل في أفريقيا - حسين حمودة، إسرائيل في النيل - د. زبيدة عطا، والكتابان من  
منشورات مكتبة الشروق الدولية.



نعود إلى مصر.

تبين إحصاءات السكان التي تمت في القرن الماضي تحت سيطرة الاحتلال البريطاني أن نسبة المسيحيين في مصر تراوحت بين ٦-٨٪، ويعرف معظمنا أن الشعب المصري متدين، سواء كان مسلمًا أو مسيحيًا، وأن الدين له قدسية خاصة عند المصريين.

فالمسلمون يريدون اتباع دينهم، والمسيحيون يريدون اتباع دينهم، وبدون ذلك، يتحول المصري إلى كومة عظام ودم ولحم وأعصاب مُستهلَكة، لا تصنع حاضرًا ولا مستقبلًا، ولا تبنى حضارة. فما العمل؟.

هل يتخلى المسلمون عن دينهم لصالح المسيحيين؟.

هل يتخلى المسيحيون عن دينهم لصالح المسلمين؟.

هل يتخلى المسلمون والمسيحيون عن دينهم؟.

ليس هناك حل إلا أن يتمسك المسلمون بدينهم، ويتمسك المسيحيون بدينهم، ويرفض الاثنان دعاوى الفتنة، سواء كانت وافدة من إسرائيل أو أمريكا أو أوروبا أو الفاتيكان، أو أشعلتها بعض القوى التي لا تكثرث بمصر ولا بالمصريين- تاريخًا وحاضرًا ومستقبلًا- ولكن تقاتل في سبيل مكاسبها المحدودة والقصيرة، ولو على جثة مصر.

ومعلوم أنه في الإسلام والمسيحية: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وبأن الكنيسة رفضت تدخل الدولة مرارًا وتكرارًا في شئونها،

وأن البابا قال مرارًا وتكرارًا في قضية الطلاق والزواج الثاني للمسيحيين: ارجعوا للقرآن، وقال لن يجبرنا أحد على مخالفة الإنجيل<sup>(٨٤)</sup>.

وقد بينت آيات سورة المائدة أن القرآن يأمر بأن يحكم أهل الإنجيل بما جاء فيه.

سيعترض البعض بأنه قد تظهر بعض الخلافات من جراء ذلك، ولكن تاريخ مصر، والذي هو أفضل تاريخ لشعب على وجه الأرض في احتضان الأديان وعيشها في سلام وأمان - برغم تضليل وتزوير الإعلام العالمي والمحلي - يرد على ذلك، والخلافات تنشب بين أبناء الدين الواحد، وبين أعضاء المذهب أو الطائفة الواحدة في الدين الواحد، بل وبين الأحزاب، وداخلها، والعبرة في احتواء الخلافات، وتحويلها إلى ثراء فكري وحضاري بدلاً من إشعال الفتن من ورائها.

ونذكر القارئ أنه في جلسة مجلس الشعب بتاريخ ١٩ يولييه ١٩٧٩، وافق جميع أعضاء مجلس الشعب - بما في ذلك كل أعضائه المسيحيين - على تعديل المادة الثانية من الدستور لتصبح: الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع، واشترك عدد من الأساتذة والخبراء المسيحيين في برنامج تقنين الشريعة.

بل إن البابا شنودة صرح لجريدة الأهرام في ٦ مارس ١٩٨٥ قائلاً:

(٨٤) اللافت للنظر أن كثيراً من القسس الذين اصطفوا وراء البابا في رفضه تدخل الدولة في أمر الزواج الثاني، وما إلى ذلك من شئون المسيحيين، ويرددون وراءه أن طاعة الإنجيل مقدمة على كل شيء، يطالبون بإلغاء المادة الثانية من الدستور، انظر على سبيل المثال ما قاله الأنبا بستى لجريدة الدستور في ٢٣ فبراير ٢٠١١ على صفحة ٧.

إن الأقباط فى ظل حكم الشريعة الإسلامية يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً، ولقد كانوا كذلك فى الماضى حين كان حكم الشريعة هو السائد.

## ٥- الخوف من الدولة الدينية (الثيوقراطية)

الدولة الدينية التى يخاف بعض الناس منها هى الدولة التى يقول فيها الحاكم إنه يحكم بالحق الإلهى للملوك فى الحكم، أو يقول فيها البابا إنه معصوم من الخطأ، فلا يحق لأحد أن يراجعه فيما يقول ويفعل، ولا ينصت لصوت الشعب، فهو ممثل الله على الأرض، وعلى الجميع أن يطيعونه.

جسد تحالف الكنيسة الكاثوليكية مع الملوك والأباطرة ذلك الحكم فى العصور الوسطى، وتمسك الملوك والأباطرة بفكرة حقهم الإلهى فى الحكم، حتى بداية العصر الحديث، بل استمر ذلك فى ألمانيا وفرنسا وغيرهما لما بعد منتصف القرن التاسع عشر، كذلك مارس الباباوات ذلك الحكم الإلهى على العالم كلما سمحت ظروف القوى بذلك، وقام ذلك المفهوم على نصوص كتابية<sup>(٨٥)</sup>، وعلى تقاليد كنسية عاشت لأكثر من عشرة قرون.

(٨٥) منها على سبيل المثال: رسالة بولس إلى روما: الخضوع للسلطات: على كل نفس أن تخضع للسلطات الحاكمة، فلا سلطة إلا من عند الله، والسلطات القائمة مرتبة من قبل الله، من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله - ١٣: ١ - ٢، وفى رسالة بطرس الأولى: ... فإكراماً للرب، اخضعوا لكل نظام يدير شئون الناس: للملك باعتباره صاحب السلطة العليا، وللحكام باعتبارهم ممثلي الملك... خافوا الله، أكرموا الملك - ٢: ١٣-١٧، ومنها على الجانب الآخر تبرير حكم البابا، قول البابا جريجورى السابع: من يستطيع فتح السماء وغلقها، ألا يستطيع الحكم بأمور الأرض؟ - الفكر السياسى، د. حورية مجاهد، الأنجلو، صفحة ١٣٣.

ونشرت جريدة الشروق فى ٦ أكتوبر ٢٠١٠ فى صفحتها الثالثة على لسان القس مكارى يونان: ... قالوا له إن البابا شخص غير عادى لا يمكن أن يكون من عالمنا، فهو لا يصلح فقط لقيادة الأقباط بل لقيادة العالم، بينما جاء العنوان الرئيسى: القس مكارى يونان يعتبر المهجوم على البابا هجوماً على المسيح نفسه.

ليس لشريعة الإسلام علاقة بأيُّ مما سبق، بل إنها تنقض كل ما سبق! فعلى سبيل المثال جاء في القرآن: ﴿قَدْ يَأْهَلُ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَىٰ صُكُوتِهِمْ سَوَامٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَسْبُدَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فقد وضح القرآن، وأكد وكرر، وكذلك السنة، على بشرية الرسول، وقد قال الرسول إنه يأتيه الخصوم، كل بحجته، فإذا كان أحدهم أفصح بحيث يجعله يقضى له بغير حق، فإنما هو يأكل نارًا عندما يأخذ حق خصمه.

وقال لمن أصابته الهية من محادثة نبي الرحمة: هوّن عليك! إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد!.

فلا يستطيع أحد من المسلمين أن يدعى العصمة أو المعرفة الكلية أو الحق المطلق.

ولم يذكر القرآن، ولا السنة بالطبع، أن من صلاحيات الرسول أن يدخل أحدًا الجنة، أو يلقي بآخر في النار، ولا أن يغفر الذنوب لأحد، بل يُطلب الغفران من الله وحده، الذي لا يغفر الذنوب سواه. وأيضًا لم يذكر القرآن ولا السنة، أن الرسول يُحلل ويُحرّم من نفسه، بل جاء في سورة الحاقة ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٦﴾﴾.

لم يسلم الرسول لأحد مفاتيح الملكوت؛ لأنه هو نفسه لم يمتلكها ولم يزعم امتلاكها، فقد جاء في سورة الأحقاف ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِّي إِلَّا مَأْيُوسٌ إِلَىٰ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾.

كذلك جاء ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾  
[القصص: ٥٦]، وجاء ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]

وليس فى الإسلام ما يجعل أحدًا من المسلمين - أيًا كان علمه أو نفوذه - يزعم بأنه يحتكر الكلام باسم الله أو الإسلام أو الشرع، فجاء فى القرآن ﴿ وَقَوْفَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وجاء ﴿ وَمَا أَوْتِيَتْهُ مِنِّ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وجاء فى صحيح مسلم: «.. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فىهم أم لا» - كتاب الجهاد والسير.

وقد قال الرسول حديثًا يجعل لكل عالم مسلم الحق فى أن يعترض على أى فتوى لشيخ الأزهر أو المفتى - أو حتى الاثنين معًا - قال الرسول: «... اسأل قلبك وإن أفتاك الناس»، ولهذا قال مالك: كل إنسان يؤخذ من كلامه ويُرد، إلا صاحب هذا المقام - وأشار إلى المسجد النبوى وحجرة الرسول به.

لذلك انتشرت فى الثقافة الإسلامية مقولة مالك: من قال لا أعلم فقد أفتى. ورفض مالك مرتين أو ثلاثًا أن يطبق الخليفة فقهه فى كل ربوع الدولة الإسلامية، وقال لكل بلد ظروفه وفقهاؤه.

ليس فى الإسلام ولا تراث المسلمين هيراركية دينية ولا كهنوت تقوم عليها دولة ثيوقراطية، بل هناك الشورى التى تمنع الاستبداد فى

كل أوجه الحياة، إذا عمل بها، وقد قالت عائشة والصحابة عن الرسول: لم يكن هناك من يستشير الناس أكثر منه.

## ٦- التخويف من تطبيق حدود الشريعة

أكثر ما يخاف منه بعض المسلمين هو قطع أيادي السارقين.

يرد من يطالب بتطبيق الشريعة على ذلك قائلاً:

إن الشريعة نظام متكامل لحياة المسلم، وحدودها - بالمعنى الحرفي والحقيقي - هي الإطار الخارجى لها، والذي يقوم - بالتدرج - مع - إن لم يكن بعد - قيام الجوهر، أى المجتمع الذى يؤمن بالعقيدة ويستوعبها فيتبع التكليف، ويأتمر بالأوامر، وينتهى بالنواهي، ثم يتدرج المجتمع فى تطبيق الحدود<sup>(٨٦)</sup>. وإذا ناقشنا موضوع السرقة، فيجب مناقشة موضوع المال بأسره فى الشريعة:

المال هو مال الله، واستخلف الناس عليه ليرى ماذا هم فاعلون، فهو يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدر، أى يضيق، عمن يشاء.

تحمى الشريعة أموال الناس، أى الملكية الخاصة، ولكن فى نفس الوقت تفرض على الأغنياء دفع زكاة أموالهم، وتحث على دفع ما هو أزيد

(٨٦) لم يكن ذلك منهج الإسلام فى عصر التنزيل فقط - كما جاء فى التدرج فى تحريم الخمر، والتدرج فى تكليف المسلمين الجدد بالصلاة ثم الزكاة كما بينت أوامر النبى لمبعوثه الذى أرسله لليمن - بل إن الخليفة عمر بن عبد العزيز تدرج فى أواسط عصر الدولة الأموية فى إحياء السنة وإماتة البدع السيئة، وعندما ألح ابنه فى التطبيق الفورى وإن أدى ذلك إلى قتله، أجابه: يا بنى إن بادأت الناس بما تقول أحوجونى إلى السيف، ولا خير فى خير لا يجيا إلا بالسيف - الكامل فى التاريخ لابن الأثير، الجزء الرابع ص ٣٣٠، ٣٣١ طبعة دار الكتب العلمية - ١٤٠٧هـ.

من الزكاة، وجعلت كثيرًا من الكفارات بدفع المال. وتحت على كسب المال الحلال، وعلى العمل الجاد لتحقيق مطالب العائلة وترك الورثة أغنياء بدلًا من أن يسألوا الناس. وتنهى عن الربا، وتحت المسلمين على القرض الحسن، وإمهال المُعسر، وإن أمكن التجاوز عن دينه.

وبالطبع تنهى عن الغش والخداع في كل أنواع البيع والشراء، وتحت على إبرام العقود التي تكفل شفافية البيع والشراء، والتي تمنع الخلافات المستقبلية بين البائع والمشتري - أو الصانع والآمر بالصناعة، أو الأمر بالبناء أو ما إلى ذلك - بأن يتناول العقد التفاصيل بما يسد الذرائع أمام الاختلاف، ويحفظ حقوق المتعاقدين.

وتنظم الشريعة التشارك في الزراعة والتجارة وغير ذلك حتى لا يظلم طرف الآخر.

وأمر الحديث النبوي بدفع أجر العامل قبل أن يجف عرقه.

وألزمت الزوج بالإنفاق على زوجته حتى لو كانت ثرية ولا يحق له من مالها شيء إلا برضاها، تطوعًا.

ووضعت نظامًا للموارث يوزع التركة حسب مسئوليات الوارثين حتى يتمكن كل منهم من القيام بها.

ونهى نبي الرحمة أن يبات أحد شعبان وجاره جائع، وأعلن أن الدولة مسئولة عن سداد ديون الميت الفقير<sup>(٨٧)</sup>، وهذا بالطبع يؤكد مسئولية

(٨٧) أفتى ابن حزم بأنه إذا مات أحد من الجوع، لزم أهل قريته أن يدفعوا دينه.

الدولة عن ديون الفقير الحى، ومن ثم مسئوليتها عن تأمين العيش الكريم للفقراء، ومحاربة الفقر، وقال الإمام على: لو كان الفقر رجلاً لقتلته! وهذا أيضاً يفتح الباب على مصراعيه لتأكيد مسئولية الدولة عن تعليم وتأهيل أفرادها للعمل الذى هو المصدر الرئيسى للكسب ومحاربة الفقر، ومسئوليتها الرئيسية أن يعيشوا حياة تكفل لهم فيها الضروريات الأساسية لكرامة الإنسان، والتي تتغير طبقاً للزمان والمكان، وهى فى ذلك تقوم بدورها المحورى والأساسى فى تحقيق الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَنَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولقد بين رسول الرحمة أن الناس شركاء فى الضروريات التى كانت فى وقته: الماء، والكلاء، والنار.

فهم الآن شركاء فى ضروريات العصر، بما قد يضم البترول، والمعادن وغير ذلك حسبما يرى العلماء.

ولعنت الشريعة الاحتكار فى التجارة، وهذا بالطبع يعنى منع احتكار المعلومات، ومنع احتكار المال، أو احتكار الحكم فى عائلة أو حزب.

ومن حكم الإمام على: ما مُتَّعَ غنى إلا بما حُرِّمَ منه الفقير.  
وأمرت بالشورى.

وعرفنا كيف حدد الصحابة مرتب أول خليفة لرسول الله: مرتب مثل أواسط المسلمين، حدده عمر ومن معه لأبى بكر.



وعرفنا كذلك كيف يسأل المواطنون رئيسهم عن ثوبه من أين أتى به؟ وكيف ترد امرأه قرار الرئيس على مسمع ومرأى الشعب، فيذعن فوراً لقولها.

وعرفنا قول عمر: لو عثرت بغلة في العراق لسُئلت عنها يا عمر<sup>(٨٨)</sup>.  
في مثل هذا المجتمع، ألا يستحق السارق أقسى عقاب؟  
وهناك بعض الأمثلة التي كافأت فيها شريعة الرحمة المذنب الفقير،  
أو حتى السارق الفقير، نذكر منها:

واقع رجل زوجته في نهار رمضان، ثم جاء للنبي يخبره بما فعله، وكيف يكفر عنه، فسأله النبي ألدريك ما تصدق به؟ فأجابه بالنفي. فسأله النبي أن يمكث معه قليلاً حتى تجيئه صدقة. فلما جاء أحد المسلمين بصدقته، قال النبي للرجل خذها وتصدق بها على أحد الفقراء، فأجابه الرجل: والله يا رسول الله ليس هنا من هو أفقر مني! فتبسم النبي وقال له: خذها أنت وأهلك.

وأيام عمر، سرق البعض ناقة من يعملون لديه، فذهب إلى عمر يشكوهم، فأحضرهم عمر، فلما علم منهم بخل الرجل عليهم وسوء حالهم، فإذا به يعاقب صاحب العمل الظالم ويرى الفقراء المظلومين من السرقة.

وإذا كانت جريمة القتل هي من أبشع جرائم الإنسانية، ولا يعاني أحد أكثر من أن يُقتل أبوه أو أخوه أو ابنه ظلماً، فمع هذا شرع الإسلام

---

(٨٨) مات حوالي ١٠٠٠ مصرى غرقاً، ولم تتحرك الدولة لإتقاذهم إلا بعد أكثر من عشر ساعات، بينما كان الرئيس السابق يستجم!

العفو لأصحاب الدم إذا أرادوا، فلهم خيارات ثلاثة، مطالبة الحكومة بالقصاص، أو بطلب الدية من القاتل، أو العفو عن القاتل. فمن هنا يمكن للبعض أن يُجادل بأنه يمكن تطبيق نفس المبدأ على السرقة، فليست السرقة بأفظع من القتل، وليس العفو عن السرقة بأكبر من العفو عن القتل.

وتظهر آفاق رحمة الشريعة فيما يعرف بآية المحاربة في سورة المائدة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

نقلت تفاسير القرطبي وابن كثير والرازي والألوسي وسيد قطب أن من:

\* يحارب الله ورسوله.

\* ويسعى في الأرض فسادًا بسرقة وقتل وما إلى ذلك.

ثم يجيء تائبًا للإمام، يحصل على العفو العام!

وذكرت التفاسير المذكورة ثلاث وقائع منفردة جاء في كل منها واحد من أولئك المجرمين العتاة المحاربين لله ورسوله، والمفسدين في الأرض إلى: علي بن أبي طالب، وإلى أبي موسى الأشعري، وإلى أبي هريرة، فحصل كل منهم على العفو العام عن جرائمه.

فإله يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يُشرك به.

ومن زاوية أخرى، قد يجادل البعض بآية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَلَّحِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فلا أحد يقول بأن علينا الآن إعداد رباط الخيل لردع العدو وقتاله، ولكن علينا إعداد وسائل القوة الفعالة اليوم، فهل يمكن تطبيق عقاب رادع بوسائل اليوم بدلاً من قطع اليد<sup>(٨٩)</sup>؟.

ولكن:

ألا نخشى أن يستغل هذه الرحمة الواسعة بعض الأسياء الذين لا يريدون توبة ولا صلاحاً؟.

فلنعتبر بجيش البلطجية الذي ربه الحكومة السابقة من أصحاب سوابق السرقات وما إليها حتى أصبحوا جيشاً من المجرمين، على استعداد لقتل الجماهير في مقابل بعض مئات أو حتى عشرات من الجنيهات.

ألم يكن قطع أيادي بعض منهم يردع الآخرين، ويقطع طريق تفاقم شرهم من سرقة إلى قتل، وتفاقم أعدادهم من بضع مئات أو آلاف إلى عشرات أو مئات الآلاف؟.

ألم يتبين لنا أن السجن أصبح لا يردع كثيراً من المجرمين، بل يزيدهم إجراماً؟.

(٨٩) مع العلم بأن السجن أصبح لا يردع عن السرقة، ولا عن عودة السجين لها، وطبقاً لأقوال لواء شرطة السجون خ.م.: يُقدم للمحاكمة سنوياً بنهمة السرقة حوالي ١٥,٠٠٠ متهم، تثبت التهم على حوالي عشرة آلاف، يعضون العقوبة في السجن، فيتبادلون خبرات السرقة، ويخرجون ثم يعودون لها ثانياً وثالثاً، وأنه قبل الثورة، قارب عدد المسجونين بنهمة السرقة حوالي عشرين ألفاً، يكلف كل منهم الدولة أكثر من عشرين ألف جنيه سنوياً، ويخرج كثير منهم من السجن أكثر جرأة واحترافاً للسرقة.

## ٧- اعتراضات أخرى

هناك بعض الاعتراضات الأخرى من قبيل: إننا لا نريد أن ندنس الدين بالسياسة، أو أن مصادر الدين (القرآن والسنة) محدودة وحوادث العالم غير محدودة، فكيف يحكم المحدود غير المحدود؟.

يرد من يدعو للمشروع الحضارى الإسلامى على الاعتراض الأول بأنه ليس هناك ما يلزم بأن تكون السياسة دنسة، بل هى نشاط إنسانى رئيسى ومحورى، يؤثر ويتأثر بكل أوجه النشاط الإنسانى الأخرى، وشرع الله عند المسلمين هو ما جاء لينظم حياتهم كلها، وفى مقدمتها الحياة السياسية<sup>(٩٠)</sup>.

وهل كان عبد الله النديم وعمر مكرم وأحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول والأسقف سرجيوس ومصطفى النحاس ومكرم عبيد وفخرى عبد النور وإبراهيم فرج ومحمد نجيب وممتاز نصار وحلمى مراد أدناسًا؟ وهل البرادعى والعوا وحمدين صباحى وحازم أبو إسماعيل وجمال زهران وچورج إسحاق وعبد الجليل مصطفى وأبو الغار وأحمد بهاء شعبان وسمير مرقص أدناس؟

أما الاعتراض الثانى، فيردون عليه قائلين: خالق الكون أدرى بما حدث وما يحدث وما سيحدث، وهو أدرى بما يصلح الإنسان حتى يوم الحساب

---

(٩٠) قال بلير فى الكتاب السابق ذكره: السياسة يجب أن تكون نشاطًا أخلاقيًا، نحاول غرس توافق قيم الاشتراكية الديمقراطية وقيم المسيحية فى عقول الشعب - صفحة ٣٩، رأى بلير السياسة وسيلة للأخلاق - صفحة ١٥٨، بينما قال بوش فى زيارته الشهيرة لرئاسة الناتو فى أوروبا: قيمنا واحدة، وأخلاقنا واحدة، فإذا اجتمعنا فلن نستطيع قوة على الأرض أن تواجهنا. وغنى عن القول أنه عندما يتكلم بلير وبوش عن القيم والأخلاق فهما يقصدان الأخلاق المسيحية.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وهو أدرى بكيف يجعل للمسلم - في كل مكان وزمان - هداية لشرعه من نصوص القرآن، ومن سنة خاتم النبيين، بما حباه من عقل ومدارك وفطرة، يجتهد في استخدامها بكل الوسائل والسبل، من قياس لاستنباط لسعى وراء المصالح، ولتحقيق المقاصد الرئيسية للشرع، ويضمن المسلم بآية ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وحديث الرسول: «اسمعوا وأطيعوا ما استطعتم»، فيحمل أمانة التكليف بالخلافة على الأرض دائماً أبداً، وعينه على الآية السارية إلى يوم يرث الله الأرض وما عليها: ﴿سَرُّبِهِمْ أَيْتِنَانِي الْأَنْفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن هدف الشريعة هو تهذيب النفس الإنسانية وتحريرها من أهواء الطمع والجشع والشح وأثرة الذات، من شهوات الدنيا من مال وجنس وسلطة وشهرة وكبر، وتطهيرها من الحسد والحقد، ويُجمل كل ذلك القاعدة الرئيسية في الأديان الإبراهيمية الثلاثة: حب لأخيك ما تحب لنفسك.

ويردون أيضاً: لن يتوقف حجاج من يريد إخراج الله وشرعه من حياة المسلمين، ولن يجد غضاضة في أن ينادى بإخراج خالق الإنسان، وخالق الحياة كلها، خاصة وعامة، من حياة الإنسان العامة حتى لا يفسدها!!

ولقد جاء في الكتاب المقدس: لا جديد تحت الشمس.

بينما جاء في القرآن ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

فما زالت بعض القوى الغربية تريد إخراج الإسلام من حياة المسلمين، ليسهل لها تشكيلهم حسب مصالحها المتنوعة.

## آفاق الشريعة هى مصر بعد الثورة

وضّح كثير من العلماء والفقهاء أن الشريعة الإسلامية هى شريعة خلافة الله على الأرض:

عبادة الله بإعمار الأرض بقيم الحق والعدل وبأداء الأمانات إلى أهلها، وبالإخاء والمساواة بين البشر «فكلهم لآدم وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم، ولا فضل لأحد بسبب لونه أو عرقه أو جنسه - فليس هناك شعب مختار وشعوب مستبعدة-»، وبالتكافل والمودة والرحمة، «فلن يكون مؤمناً من بات شعبان وجاره جائع، ولا من لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وبالوفاء بالمواثيق والعهود والوعود، ونشر السلام «اقرأوا السلام على من تعرفون ومن لا تعرفون»، وبالسعى الجاد لاكتساب العلوم والمعارف ﴿قُلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، بالعمل الجاد ﴿قُلْ أَعْمَلُوا﴾ وبالعمل لخير البشر «أحبكم لله أنفعكم للناس»، وبالعمل لخير العائلة «خيركم خيركم لأهله»، وبالرفق حتى بالحيوان - فقد دخل الجنة رجل سقى كلباً عطشان، ودخلت النار امرأة حبست قطة - وبالإحسان، كما أحسن الله إلينا.

فهل هناك وظيفة للإنسان على الأرض أفضل من هذا؟

جمعت الآيات ١٥١ - ١٥٣ من سورة الأنعام، والآيات ٢٣ - ٣٩ من سورة الإسراء روح ما جاءت به الوصايا العشر فى التوراة، مع زيادة

في الفروع والتفاصيل، وقال المسيح «ما جئت لأنقض الناموس» فهو على شريعة التوراة إلا بعض التخفيف عنها، وقال حكمته الخالدة: ماذا يربح الإنسان لو كسب العالم وخسر نفسه؟ فجماع الشرائع الإلهية في القاعدة الذهبية: حب لأخيك ما تحب لنفسك، والقاعدة الضرورية: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ففي ظل هذه الشريعة، تزدهر الحضارة الإنسانية كما ازدهرت، على سبيل المثال، في الأندلس، وأبدع المسلمون والمسيحيون واليهود.

وإذا كان ما سبق كلامًا جميلًا، ربما يجتمع عليه كثير من البشر، إلا أنه كلام، يحتاج عملاً شاقًا مستمرًا، بوعى وتخطيط ومثابرة لإنجاز بعضه... وتلك هي قصص جهاد الأنبياء مع مجتمعاتهم، وقصة الصراع بين الحق والباطل، أو بين الخير والشر كما يقول جورج بوش، والمستمرة حتى يوم الدين.

إقامة الحق والعدل يحتاج إلى قوة... والقوة تحتاج إلى علم وعمل ومال وتكنولوجيا، وقبل ذلك وخلال وبعد، تحتاج إلى إيمان وعزيمة.

ولا ينقص المصريون أي من ذلك.

وإذا كانت المسيحية السياسية في أوروبا القرن العشرين نجحت في تنمية ألمانيا وإيطاليا وغيرهما، وفي تهذيب اقتصاديات الرأسمالية، وفي إنشاء الاتحاد الأوروبي - كما مر علينا من قبل في مقتطفاتنا من موسوعة كمبريدج للتاريخ: الفكر السياسي في القرن العشرين - كذلك

نجح - ولو جزئياً - لاهوت التحرر في أمريكا الجنوبية في تحرير شعوبها من الظلم والاستبداد والفقر والجهل، فلماذا لا ينجح الإسلام السياسي في تحقيق آفاق الشريعة؟.

يقول أصحاب المشروع الإسلامي:

\* تبدأ البداية والخطوة الأولى بالتحرير الفكري، ذلك هو التوحيد الخالص والمعنى الخالص لشهادة لا إله إلا الله: التحرر من خضوع التبعية، الخضوع الثقافي والمالي والاقتصادي والسياسي للبشر.

ما الذي يجعلنا نقبل بفرض قانون ناپليون - الذي هو خليط من القوانين الرومانية، وقانون القبائل الجيرمانية، وقوانين الكنيسة، والقانون الطبيعي الذي نادى به بعض الربوبيين<sup>(٩١)</sup> أو من يضعون الطبيعة مقام الله - بدلاً من الشريعة الإسلامية؟ وما الذي يجعلنا الآن نرضخ للضغوط الغربية - وبخاصة الأمريكية - لإخراج الشرع الإسلامي من حياتنا<sup>(٩٢)</sup>؟ وأن تصبح حياتنا نسخة شائثة زائفة فاشلة من الحياة الأمريكية أو الغربية؟ وما الذي يجعلنا نرضخ لأن يُملَى علينا صندوق النقد والبنك الدوليين سياساتنا المالية والاقتصادية؟ وأن نرضخ لأن تقضى مؤسسات دولية في قضايا تنشأ على أرضنا مع

(٩١) انظر صفحة: ١١١.

(٩٢) طالعتنا جريدة المصري اليوم في ٢٤/٦/٢٠١١ بالعنوان الآتي: «مسيحيو الجزائر يطالبون بتعديل المادة الثانية من الدستور الخاصة بدين الدولة - رئيس الكنيسة البروتستانتية: المسيحيون يشعرون بأنهم مواطنون درجة ثانية»، فهل هناك توارد خواطر؟! الطريف في الأمر أن عدد المسيحيين في الجزائر أقل من ١٪ طبقاً لما جاء في الجريدة، وهناك تقديرات بأقل من ذلك الواحد بالمائة بكثير!، وهم نتاج حركات التبشير المعاصرة.



شركات أو مؤسسات أجنبية جاءت لمصر سعيًا وراء مصالحها، وأن تقوم بيننا مؤسسات تمويلها أوروبا وأمريكا لتجعل ما تسميه حقوق الإنسان قانونًا فوق كل قوانيننا، بما فيها الشريعة؟ ومما يستلفت النظر في هذا الأمر، أن كثيرًا من تلك المنظمات التي أنشأها الغرب، وبالذات الولايات المتحدة، تضم رجال قانون مصريين لامعين ونجباء، والمفترض أنهم يعلمون تمامًا سياسة الولايات المتحدة - داخليًا وخارجيًا - والتي لا تأبه لأى قوانين أو قرارات، سواء صادرة من الأمم المتحدة، أو المحكمة الجنائية الدولية (ICJ) التي ترفض الولايات المتحدة الانضمام إليها، أو غير ذلك، ويعلمون تمام المعرفة أن المشولين فى حكومات الولايات المتحدة المتعاقبة لم يتوقفوا عن الإعلان بأنهم يسعون للحصول على التأييد الدولى، ولكنهم على أتم الاستعداد للعمل منفردين دون الحصول عليه، بل ويخلافه إذا اقتضى الأمر. ومن المستبعد جدًا أن تلك النخبة المتميزة من القانونيين والنشطاء المصريين الذين يعملون فى تلك المنظمات لم يقرأوا - على سبيل المثال - التعديل الحديث فى قانون ولاية أريزونا - التى لم تصبح ولاية إلا فى عام ١٩١٢، أى منذ أقل من مائة عام، والتى يبلغ تعداد سكانها خمسة ملايين فقط - والذي يرفض تطبيق أى قوانين صادرة من: الأمم المتحدة وأى وكالة تابعة لها، والاتحاد الأوروبى وأى وكالة تابعة له، والمحكمة الدولية، والصندوق والبنك الدوليين، ومنظمة الأوبك، والاشتراكية الدولية!، أو ما كتبه جنجريتش رئيس مجلس الشيوخ الأسبق، والذي يحتمل أن يرشح نفسه للرئاسة عن الحزب الجمهورى: إن الأمريكين أصحاب القيم الأمريكية يرون أن على الولايات المتحدة أن تضع مصالحها قبل التعاون مع

المنظمات الدولية (نسبة القائلين بذلك ٧٣٪) - كتاب «Winning The Future» من منشورات Regency Publishing, Inc. سنة ٢٠٠٥، تحت عنوان *Test Yourself* قبل مقدمة الكتاب<sup>(٩٣)</sup>.

\* ثم علينا اعتبار قضية اكتساب العلوم والمعارف والتكنولوجيا والبحث العلمي قضية مصيرية، وهذا هو جزء من العلم والعمل اللذين تأمرنا الشريعة بهما.

\* وبالتوازي مع ما سبق، يجب تحقيق أكبر قدر من المساواة بالعمل الجاد الأمين على رفع المستوى التعليمي والصحي والمادي<sup>(٩٤)</sup> للقاعدة الكبرى من المواطنين، والذين بدورهم يشكلون قوة شرائية تمثل قاعدة كافية لقيام مختلف أنواع المنتجات والخدمات، وهؤلاء المواطنون هم المتسابقون باسم مصر في التنافس العالمي على الدنيا.

(٩٣) وذلك برغم أنه في سجلات التاريخ والحاضر، صدرت مئات الأحكام والتقارير والتوصيات والقوانين والقرارات الظالمة من مؤسسات دولية ييمن عليها الغرب، وآخرها تقرير للأمم المتحدة يريء العدوان الإرهابي لإسرائيل على سفينة تركية في المياه الدولية تحمل معونات غذائية وصحية لغزة - التي تحاصرها إسرائيل - في جريمة على مرأى وسماع من كل العالم، فإذا أصحاب حقوق الإنسان يقولون إن من حق «الذين اعتلوا [هكذا...]

السفينة أن يدافعوا عن أنفسهم»، وقبل ذلك شهادة أوباما المشهورة للرئيس المخلوع - الذي تعلم أمريكا تمام العلم استبداده وفساده وفشله - حين قال عنه: قوة خير للمنطقة!.

ثم المحاولات المستميتة من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي لمنع تقدم فلسطين للأمم المتحدة بطلب الاعتراف بها كدولة مستقلة، ويهددون بإجراءات انتقامية ضد فلسطين لو لجأت إلى الأمم المتحدة!.

(٩٤) على سبيل المثال: أنفق الأهالي في العشر سنوات الماضية ما يقارب ميزانية الدولة في التعليم، بل وفي بعض السنوات أنفقوا أكثر! فإذا أحسنت الدولة - بالاشتراك مع القطاع الخاص والأهالي - إدارة العملية التعليمية لوفرت ذلك، ولذهب ذلك الإنفاق لبند المدخرات والاستثمار.

\* وبناء المؤسسات التعليمية الناجحة يمكن أن يجذب تلاميذ وطلاب من مختلف البلاد العربية والأفريقية والإسلامية، فمنذ بضع سنوات، احتلت برامج تعليم اللغة الإنجليزية المركز الخامس أو السادس في صادرات بريطانيا، فيمكن لبرامج مثيلة في اللغة العربية، وفي العلوم الشرعية أن تشكل حجمًا كبيرًا في الصادرات المصرية.

ولا ينبغي النظر إلى إصلاح التعليم باعتباره وسيلة جذب للطلاب من خارج مصر فقط، ولكن باعتباره حجر الزاوية في أي مشروع نهضوي، خاصة وأن فساد المنظومة التعليمية قد وصل حدًا يوحى بالتآمر وسوء القصد، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال تفعيل دور المدرسة والجامعة وتحسين أوضاع هثيات التدريس فيها، مما سيقضى تلقائيًا على ظاهرة الدروس الخصوصية، وينعكس إيجابيًا بشكل مباشر على دخل الأسرة المصرية.

\* وما يُقال في التعليم يقال في المجال الصحي، فالأطباء المصريون على درجة عليا من الكفاءة، ويحتاجون لتخطيط شامل جاد ودؤوب لتحديث وتنظيم عمل المؤسسات الصحية، التي يمكنها أيضًا اجتذاب المرضى والدارسين من العالم العربي وإفريقيا.

أيضا لا ينبغي النظر إلى المنظومة الصحية باعتبارها بابا للسياحة العلاجية فقط، بل باعتبارها من الأولويات المطلقة (مع الغذاء) التي ينبغي أن يتوجه إليها الاهتمام، خاصة بعد أن وصلت بعض الأمراض كسرطان الكبد والفشل الكلوي إلى أعلى المعدلات العالمية. ونرى أن

ذلك لن يحتاج إلى زيادة كبيرة في ميزانية الصحة بقدر ما يحتاج إلى ترشيد الإنفاق في بنود يتم انتهائها بشكل كبير، مثل الإنشاءات والعلاج على نفقة الدولة، وشراء أجهزة متقدمة تكهن في المخازن قبل استخدامها.

\* أمرتنا الشريعة بالعدل، وأساسه العدل الاجتماعي، وأمرتنا بالتكافل، فكيف تنحط حكوماتنا المتعاقبة إلى الظلم الصارخ في دخول العاملين بها؟ والظلم الصارخ في تمييز بضعة ممن يُسمون رجال الأعمال ومحاباتهم بالقروض والتسهيلات، والأراضي شبه المجانية، والإعفاءات الضريبية وغير ذلك على حساب بقية الشعب؟ لقد فعلت حكوماتنا ذلك لأن جمال مبارك أراد صناعة نسخة متطرفة مُشوّهة من رأسمالية اليمين الأمريكي - اليمين السياسي واليمين المسيحي، والتي رفضها الشعب الأمريكي حين طالب بالتغيير، وحين جاء أوباما - طلباً لرضاء واشنطنون عليه وعلى مشروع التوريث.

إن كارثة الدخول في مصر عامل رئيسي في تدهور حال الشعب المصري، ولولا مائة نسيجه ذى البضعة آلاف سنة لتمزق شر تمزيق. هناك عاملون بالدولة يتقاضون أقل من ثلاثمائة جنيه شهرياً، وهناك حوالي ٤٠,٠٠٠ مستشار، يكلفون الدولة ١٢ - ١٥ مليار جنيه في السنة، أى بمتوسط أعلى من ٢٥٠٠٠ جنيه شهرياً، منهم - ربما بضعة آلاف - يتقاضون أكثر من مائة ألف، وبعضهم أكثر من مليون شهرياً، أى أكثر من أوباما<sup>(٩٥)</sup>.

(٩٥) ومن العجيب أن يصرح محافظ البنك المركزي بأنه لن تكون هناك حدود عليا للمرتبات في قطاع البنوك، ويؤيده في ذلك أحد أبرز مساعديه، ويصرح أحد رجال الأعمال البارزين في التطبيع أن الحدود الدنيا للمرتبات هبل إعلامي!. ماذا يمكن أن نقول عن موظف تأتمنه الدولة والشعب على أموال المصريين، يرفض أن يكون دخله ٣٠,٠٠٠ جنيه شهرياً، في الوقت الذي يتقاضى فيه ملايين الموظفين في الدولة راتباً أقل من ١٠٠٠ جنيه شهرياً؟ بالإضافة لوجود ملايين العاطلين! =

\* وأيضًا بالتوازي مع ما سبق، يجب التخطيط لهيئة صناعية زراعية خدمية تكنولوجية، مع قيام الدولة بواجبها الرئيسي في حماية أسس استقلالها، وعلى المسؤولين القتال بكل أساليبه وأشكاله لحماية ذلك، ولهم العبرة فيما فعلته وتفعله الدول المتقدمة في حماية منتجاتها الإستراتيجية - بكل السبل، بدءًا بالحماية الجمركية بمختلف أنواعها، إلى الدعم بكافة أنواعه: مالى، بحوث وتكنولوجيا، وغير ذلك... ولا ننسى أن أوروبا احتلت ثلثي العالم لمدة قرنين أو ثلاثة لبناء اقتصادها، وما زال الغرب يفرض على العالم القوانين التى تناسبه، فلا يمكن أن نستمر فى سياسات تدور بنا فى حلقات التبعية والاعتماد على من يعمل بكل وسيلة - مشروعة وغير مشروعة - لمصالحه ولا استمرار تفوقه وسيادته.

\* وإذا كانت صناعة وتجارة السلاح والأدوية فى مقدمة صناعات وتجارة العالم، فلماذا لا نخطو الخطوة الأولى فيها؟ ولقد خطونا فعلاً تلك الخطوة الأولى منذ عدة عقود بنجاح، ثم توقفنا.

إسرائيل ذات البضعة ملايين مواطن تنتج السلاح، وكذلك الصين التى كانت خلف مصر حتى خمسينيات القرن الماضى، وذات المليار وثلث المليار مواطن، تنتج السلاح، وإيران التى تحاصرها أمريكا والغرب منذ ثلاثين سنة تنتج السلاح.

---

= بل إنه يرفض الكشف عن المرتبات الكبرى فى البنوك! مع العلم بأن هناك عشرات الآلاف فى مصر أكثر إخلاصًا لبلدهم، وأكثر كفاءة، من أولئك الثلاثة. وتظهر الأقوال السابقة وجهًا من النيولبرالية يجسد الصلف المغرور والأنانية عديمة الإحساس بالغير، ونتيجته أن حصل ١٪ من الأمريكين فى عام ٢٠١٠ على ربح إجمالى الدخل القومى وكدسوا ٤٠٪ من ثروات أمريكا، ونتيجته فى مصر فساد وظلم اجتماعى مماثل ألقى بجمال مبارك وعصبته فى سجن طرة، وبقيتهم فى الطريق إليه.

فلماذا لا تبدأ مصر فى ذلك؟

مع العلم بأن تقدم صناعات كثيرة فى أمريكا، مثل الحواسب والنت والاتصالات وصناعات الفضاء، والأدوية وغيرها، يرجع للأبحاث التى يقودها وينفق عليها الباحثون بسخاء، ثم تستفيد منها الصناعة التكنولوجية المدنية.

وبالطبع يمكن لمصر التخطيط والتنسيق فى ذلك مع كثير من البلاد العربية والأفريقية والإسلامية، وبلاد أمريكا الجنوبية والهند والصين وروسيا، وغيرها.

وما يقال عن السلاح يُقال عن الدواء.

\* وعلى الدولة أن تعيد النظر فى عدوها؟ أهو الشعب؟! كيف يكون عدد العاملين بوزارة الداخلية، وقوات الأمن المركزى وما إلى ذلك أكبر من عدد العاملين بوزارة الدفاع وعدد قوات الدفاع؟.

على الدولة أن تخفض من ميزانية وأعداد العاملين فى وزارة الداخلية لحساب وزارة الدفاع.

ومن الذى يمثل الخطر الرئيسى على مصر؟ حماس وإيران أم إسرائيل؟. وكيف تقف الحكومة المصرية فى خندق إسرائيل وأمريكا فى تنفيذ مشروع فصل جنوب السودان وإقامة دولة مسيحية فيه؟<sup>(٩٦)</sup>

(٩٦) لماذا حضر جون كبرى مرشح الرئاسة السابق، وكارتر الرئيس الأمريكى السابق، وغيرهما من الشخصيات الهامة فى أمريكا قدام الاحتفال بدولة جنوب السودان؟ قال رمزى كلارك - النائب العام فى حكومة جون كنىدى - إن واشنطن مقدرة =

\* وفي مجال الطاقة، لماذا لا تبدأ مصر مشروعات طموحة لاستغلال الطاقة الشمسية؟ ولماذا لا تدخل بجدية في مشروع الطاقة النووية؟.

\* وفي مجالات السياحة والتجارة والخدمات، لماذا لا تصبح بورسعيد والإسماعيلية والسويس ودمياط والإسكندرية مراكز جذب مثل دبي وسنغافورة وكوالالمبور؟.

فلنعمل على أن يأتي سائحون عرب إلى مصر بقدر ما يذهبون إلى ماليزيا! ولماذا نرفض تسهيل دخول الإندونيسيين والماليزيين والأتراك إلى مصر بدون الحاجة لتأشيرات، في مقابل أن يذهب المصريون لتركيا بدون تأشيرة؟ مع العلم بأن المصريين يدخلون إندونيسيا وماليزيا بدون تأشيرة. وكيف يدخل الإسرائيليون سيناء بدون تأشيرة حتى اليوم؟..

ولماذا نغلق الباب في وجه السياحة الإيرانية لمصر، والتي يؤكد خبراءؤها - على الجانبين - أنها لن تقل في سنتها الأولى عن نصف مليون سائح ينفقون ما لا يقل عن مليار دولار، ويمكن أن تزيد إلى أكثر من مليون ينفقون أكثر من ٢ مليار دولار سنوياً؟.

ولماذا نغلق الباب في وجه الاستثمارات الإيرانية في مجالات السيارات والبتروكيماويات والصناعات الغذائية؟<sup>(٩٧)</sup>.

---

= لمبارك دوره في كبح الإسلام، وإن أمريكا تعمل على فصل جنوب السودان منذ أكثر من عشرين عامًا - قال ذلك في حفل عشاء أقيم له منذ بضع سنوات في فندق هيلتون رمسيس القاهرة. وقرأ ما جاء في جويش تليجراف ٨ / ٧ / ٢٠٠٤: السودان أصبح قضية يهودية إسرائيلية، قضية دارفور قضية يهودية إسرائيلية!.

= (٩٧) تتج إيران ما يقرب من مليون سيارة سنوياً، بنسبة تصنيع تزيد على ٨٠٪،

\* وكما ساهمت الأحزاب المسيحية فى إنشاء الاتحاد الأوروبى، لماذا لا يساهم الإسلام السياسى فى إنشاء الاتحاد العربى، ثم الاتحاد الإسلامى؟.

\* وعلينا استبدال شعار تجفيف منابع الإسلام بتجفيف منابع التبعية والفساد، والعمل على تحقيق الشفافية الكاملة فى ميزانية الدولة.

فقد تحدث المسئولون، ومنهم رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات، عن الصناديق الموازية، التى بلغت - طبقاً لما أمكن حصره - بضعة آلاف صندوق، وفى تقدير خبراء مالية مثل عبد الخالق فاروق وعبد الحافظ الصاوى راكمت ما يقارب ترليون جنيه فى العشرين سنة الماضية، أى ما يقارب مائتى مليار دولار، ضاع ٦٠٪ منها فساداً.

\* كذلك علينا تحويل مراقبة أمن الدولة للناشطين السياسيين إلى مراقبة الناشطين فى جلب المخدرات، التى تستنزف أكثر من ٢٠ مليار جنيه سنوياً من جيوب المصريين، بالإضافة لما تهدمه من الصحة البدنية والنفسية للمدمنين، وما يتكلفه علاجهم، وآثار التعاطى الضارة على المحيطين بهم.

وعلى المؤسسات الدينية، الحكومية والأهلية، قيامها بالدور المطلوب منها فى تحريم المخدرات، مثل تحريم الخمر.

\* ويمكننا الاستفادة من أموال الزكاة بشكل جماعى مؤسسى يساهم

---

= وعرض رئيس الغرف الصناعية والتجارة الإيرانية استثمار إيران فيما سبق ذكره، وذلك للوفد الشعبى المصرى الذى زار إيران فى مطلع العام الحالى.



في الإنتاج أكثر مما يساهم في إشباع الاستهلاك، فإذا كان إجمالي الناتج في مصر حوالي تريليون جنيه، وقدّرنا ٥, ٢٪ على نصفه فقط، لأتيح لنا ٥, ١٢ مليار جنيه سنويًا، فإذا نجحت الدولة - بالاشتراك مع المؤسسات الوطنية - في كسب ثقة المزمكين لاستطاعت توفير استثمار معتبر بتكلفة صفرية<sup>(٩٨)</sup>، وما يُقال عن الزكاة، يقال عن الأوقاف الإسلامية التي أمتها الدولة، ولا أحد يعرف ماذا تفعل بها.

وجدير بالذكر أن كثيرًا من جامعات ومستشفيات أمريكا الناجحة والمتميزة قامت على الأوقاف.

وعلى الدولة أن تكف عن الاقتراض - الذي كان من ذرائع احتلال إنجلترا لمصر ثمانية عقود، والذي يُكْرَس التبعية التي يريد بها بعض المتنفعين والمستغربين - وتعمل جدًّا على استرداد أموال مصر المنهوبة داخليًا وخارجيًا.

وقد عرض الخبراء عدة خطوات أساسية توفر للدولة ما يكفيها:

رفع أسعار بيع الغاز إلى الأسعار العالمية - إنهاء دعم الصناعات التي تحقق أرباحًا غير معتادة، مثل صناعات الأسمت والحديد والسيراميك بالطاقة الرخيصة - عمل ضرائب تصاعدية على تلك الصناعات، وعلى شركات المحمول بأرباحها المليارية، ومثيلاتها - استرداد القروض التي بالمليارات من أصحاب الخطوة ممن يُسمون رجال الأعمال من عصبة جمال مبارك ومن

---

(٩٨) لو رجعتنا لميزانيات الدولة، لوجدنا أن ما يقارب نصفها - ٥٠٪ - يذهب لسداد القروض وفوائدها.

حواله - عمل ضرائب على أرباح البورصة كما يحدث في معظم دول العالم - استعادة سيطرة الدولة على الصناديق الموازية وتطهيرها من الفساد لتخدم الشعب - ضبط الحد الأعلى للدخول، ويكفى في ذلك ثلاثين ألف جنيه شهرياً للعباقر ذوى الإنجاز، ومن لا يقبل فليترك منصبه لغيره<sup>(٩٩)</sup> - إيقاف نزيف خسائر الإعلام، الذى ضلل الشعب لعدة عقود<sup>(١٠٠)</sup>، بميزانياته المفتوحة سواء لدعم نظام مبارك أو لتغريب الشعب - الاستغناء عن آلاف المستشارين من مستشارى السوء لعائلة مبارك والعصبة التى حوله.

(٩٩) وبالنسبة للقطاع الخاص، فعلى الدولة أن تطبق نظام الضريبة التصاعدية على أرباح الشركات، وعلى الدخل العام، فمثلاً من يزيد دخله عن نصف مليون جنيه سنوياً يدفع ٢٥٪، وتتصاعد الضريبة ١٪ مع كل مائة ألف جنيه، حتى إذا تجاوز مليون جنيه فى السنة دفع ٣٠٪، وإذا تجاوز ٢ مليون جنيه فى السنة دفع ٤٠٪، حتى يصل السقف الأعلى للضريبة عند دخل ٣ ملايين سنوياً، أو ما يزيد عليه إلى ٥٠٪. ويسرى هذا النظام على الجميع: رجال أعمال، وأطباء، وإعلاميين، أدباء وكتاب، فنانيين، ولاعبى الكرة وغيرهم.

(١٠٠) وبالنسبة للإعلام الخاص، والذى ربما يكون فى بعض الأحيان أكثر خطراً وأشد ضرراً من الإعلام الحكومى، فالأخير قد تعوقه البيروقراطية وقلة الكفاءة الحكومية المعتادة، بينما الأول يدفعه رأس المال والربح دفقاً، فكثيراً ما يصبح أسيراً لرأس المال وللإعلانات، وذلك يمثل سما يجرى فى عروقه، كما يجرى سم النفوذ الأجنبى فى عروق الدولة التى ترضخ له. ولقد تبنى الإعلام الخاص الثورة وأهدافها، بل وساهم فى قيامها، فعليه أن يمارس ما تدعو إليه الثورة داخل مؤسساته: العدل الاجتماعى - الديمقراطية - الشفافية، وإن لم يمارس ذلك، فكيف يدعو إليه؟ ففاقد الشيء لا يعطيه.

وإذا كان السياسيون معرضين للفساد بسبب شهوة السلطة وشهوة المادة، فالإعلاميون مثلهم فى ذلك، ويضاف فى حالة الإعلاميين شهوة الشهرة، وإذا كان زواج السلطة ورأس المال خطراً على المجتمع، فزواج الإعلام ورأس المال لا يقل خطراً.

وهناك رجال أعمال يملكون وسائل إعلامية، وإعلاناتهم تهم كل وسائل الإعلام لدرجة أنها تتجنب نشر ما يضرهم، ومنهم من يستطيع التأثير - إن لم يكن شراء - بعض البرامج ومن يقدمها، وبعض الأعمدة ومن يكتبها.

\* جاء في القرآن ﴿فَاتَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا وَإِلَيْهَا النُّشُورُ﴾، وجاء ﴿فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾. كيف أهملنا سيناء بكل وزنها وثقلها للاقتصاد والأمن القومي؟! قال اللواء منير شاش محافظ سيناء الأسبق - رحمه الله - إنه قدم حوالي ثلاثين مشروعًا لتنمية سيناء، لم ينظر رئيس الوزراء لأي منها!.

فإذا كان مبارك وعصبة لم يكن يعينهم سوى مصالحهم الخاصة - وخير إسرائيل كما صرح أوباما - وانحصر تفكير مبارك وعصبة في جلب السائحين من إسرائيل والاستجابة لطلباتهم الشاذة في كل أنواع الجنس والمخدرات، مع بعض السياحة الأخرى من أوروبا، حتى إنه منع إقامة جسر بين مصر والسعودية لخدمة التجارة والأعمال والسياحة، فعلى حكومتنا الجديدة تغيير كل ذلك، وتنمية سيناء زراعيًا وصناعيًا وتجاريًا وسياحيًا، وتكثيف السكان بها.

\* وعلى الدولة العمل بكل الوسائل القانونية على استعادة ما منحتة الحكومات المتعاقبة في أكبر عملية سرقة في تاريخ مصر - المسماة الخصخصة - لأفراد، ومؤسسات قريبة من عائلة مبارك وعصبة.

\* ومن أخطر ما يهدد استقلالية مصر وشعبها أن تترك المؤسسات الأجنبية حرية العمل داخل مصر دون دراسة ودون مراقبة جديدة لأهدافها، وأهداف وآثار تمويلها للمصريين، سواء كانوا أفرادًا أو أحزابًا، أو مؤسسات وصناديق تمويل وما إلى ذلك.

فالأمر أوضح من الحاجة لبيان أنها تعمل لخدمة المؤسسات الأجنبية: من أرسلها ومن يمولها. وقد يستفيد الشعب المصري منها، وقد

لايستفيد، وقد تُسبب أضرارًا بالغة، والأممر أخطر من أن يُترك كما كان في عهد مبارك، بنظمه ولوائحه.

\* ومن أخطر أشكال التبعية الثقافية والمادية التي أصابتنا، ما جرّجرتنا إليه ثقافة وال ستريت الأمريكية من حمى الاستدانة للاستهلاك وللمظهرية الزائفة، مما يتعارض مع ثقافتنا الإسلامية، ويتعارض أكثر مع ثقافتنا المسيحية. فعلى الدولة مع مؤسسات الفكر الخاصة كبح جماح جنون الاستهلاك وإعلاناته التي تجعل من التضليل والترزيف والإغراء الفج أسلوب تخاطب يومي معتاد.

\* وعلى الدولة أيضًا - مع المؤسسات الأهلية - ابتداء نظم تمويل واقتصاد إسلامية، وقد سبقت ماليزيا دول العالم الإسلامي في ذلك، وتسابت إليها صناديق ومؤسسات التمويل التي تريد اتباع النظام الإسلامي<sup>(١٠١)</sup>.

\* ولا حاجة بنا لتكرار محورية الشورى أو الديمقراطية في حياتنا كلها، فالاستبداد يصنع أنصاف آلهة، وأشباه عبید، وهذا ما جاء الإسلام لهدمه.

\* جاء في القرآن ﴿وَلَا تَقْفُوا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا فَاسْلُوكُوا بَيْنَهُمْ إِنْ بَغْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُونُوا فِي سَعْيِكُمْ أَنْ تَقْفُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ بَغْيَكُمْ عَلَيْهِمْ يَكُونُ إِنْ أَعْتَبْتُمْ عَدْوِيًّا مُّحَرَّمًا عَلَيْهِمْ وَإِلَىٰ ذَٰلِكُمْ تُكْرَهُونَ﴾ [الحجرات: ٩]، وجاء في الحديث «أفضل الجهاد قوله حق عند سلطان جائر»، وجاء «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فلما سأله الصحابة كيف نصره وهو ظالم؟ أجابهم «بأن تكف يده عن الظلم».

(١٠١) أصدرت الشروق الدولية كتاب «التجربة الماليزية» في ذلك المجال، بقلم نوال عبد المنعم بيومي، وتقديم د. رفعت العوضى.

لو اتبع المسلمون شرعهم لمنعوا ظلم صدام حسين لشعبه، ولمنعوا غزوه الكويت، أو لطردها بقوتهم قواته من الكويت، ولو فعلوا ذلك لما غزت أمريكا بقواتها العراق، ولو منعوا القذافي من ظلم شعبه لما وصلنا لما نحن فيه الآن، ولتدبر كيف أن أمريكا والنااتو يقومون بما كان يجب على القوات الإسلامية القيام به، ثم تحقق أمريكا ومن معها الفوائد الآتية:

١- تتقاضى ثمنًا غاليًا عن عملها العسكري من دول البترول العربية، فتخرج بمكاسب مالية باهظة.

٢- تكتسب خبرة من عملياتها العسكرية، لتطور بها أسلحتها وخططها.

٣- تتخلص من أسلحتها القديمة.

٤- تتخلل الدولة والمجتمع الليبي.

٥- تفرض شروطها على حكومة ليبيا القادمة.

ويسكت العرب المسلمون عما يحدث في سوريا، وما يحدث في الصومال، وبذلك يبيثوا الفرص لكل الطامعين.

\* ويجدر بنا - خاصة ونحن على مشارف انتخابات برلمانية وانتخابات رئاسية - أن نحذر من خيانة الله ورسوله، فنختار الأفضل، ليس الأقرب ولا من نرجو منه منافع خاصة، أو أهداف خاصة على حساب الصالح

العام<sup>(١٠٢)</sup>، فقد جاء في الحديث «من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله».

\* كذلك يجدر بنا أن نحذر من التزوير الذي قرنه الحديث بالشرك «أكبر الكبائر الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، ألا وقول الزور» حتى قال الصحابة ياليتيه سكت.

\* وعلى أصحاب العمل السياسي الإسلامي أن يتحملوا مسئوليتهم - مع بقية القوى السياسية - في تأليف ومزج كل أطراف العمل السياسي في مصر، من أقصى اليمين لأقصى اليسار، وألا ينزلقوا في معارك جانبية كل هدفها إخراج مصر من مسار الإصلاح، وأن يعوا تمامًا، هم وكل الطيف السياسي في مصر، أن بكل من إسرائيل وأمريكا طيفًا سياسيًا وثقافيًا أكثر اتساعًا وتناقضًا من الطيف السياسي المصري، ولكنهم يعملون معًا، ولا يتبعون أساليب الإقصاء والإبعاد.

\* وأن يتبها للخطة العالمية لنشر الإسلام موفوبيا، ليس فقط في أمريكا

---

(١٠٢) لماذا اختار مبارك عاطف عيد رئيسًا للوزراء؟ لم يكن للرجل في أى وقت رؤية، ولم يزعم أحد له إنجازًا، فضلًا عن أنه مدمن، فهل هذا سبب اختياره؟! بالإضافة لحسه على مشروع التوريث؟! ومن طرائف حكم عبيد ورؤيته تصريجه الذى قال فيه: إذا أردنا دخول السوق الأفريقية، فأفضل السبل لذلك رجال الأعمال اللبنانيين! كذلك لماذا اختار أحمد نظيف رئيسًا للوزراء؟ لم يمارس أى نشاط سياسى قبل اختياره، ولا حتى بعده، وهو عديم الرؤية السياسية من قبل ومن بعد، وقد ذهب لواشنطن فقال: مصر دولة علمانية - الشعب المصرى غير مستعد للديمقراطية - لو تركنا الانتخابات دون تدخل (عام ٢٠٠٥) لزادت حصة الإخوان على ٢٥٪! هل كان الرجل يقدم مسوغات تعينه لواشنطن؟ تلك المسوغات هى الجهل، وازدراء الشعب المصرى والتكبر عليه والافتخار بالتزوير والحرب على الإسلام السياسى!.

والغرب، بل وهنا في الشرق الأوسط، وفي مصر بالذات، وذلك يحتاج  
لخطة مواجهة حكيمة شاملة، بعيداً عن انفعالات اللحظة والأحداث.

\* كذلك على أصحاب العمل السياسى الإسلامى أن يعوا أن تقنين  
الشرعية ليس هدفاً بذاته، بل هو وسيلة لبناء المجتمع الذى قال القرآن  
عنه ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، وكذلك الحكم ليس هدفاً بذاته، بل  
هو وسيلة بناء ذلك المجتمع، وُرِّبَ سياسى خارج الحكم أنفع وأفيد  
لبلده وأكثر تأثيراً من حاكم!.

## • هذا الكتيب •

يقدم هذا الكتيب مدخلا  
مبسّطا ومختصرا للتعرف على  
ثقافتين، أو طريقتين للحياة،  
يتناولهما الإعلام المصري  
بصورة شبه يومية: الليبرالية...  
والشريعة الإسلامية.

ما هو السياق الذي نشأت  
فيه الليبرالية وتطورت؟ ما  
هي مجالاتها المتعددة في  
الاقتصاد والسياسة والثقافة،  
في أوروبا وفي أمريكا؟ وأي  
شكل وأفكار تسودها اليوم؟

أما الشريعة الإسلامية في  
مصر، فمتى بدأ انحسارها؟،  
ومتى بدأت المطالبة  
باستعادتها؟ وهل هي مجرد  
أحكام وحدود أم طريقة حياة  
لها أهدافها وأفاقها؟ وأين تقع  
الأحكام - والحدود - فيها؟

